ليكن ذلك .. الليلة

مجموعة قصصية

عبد الفتاح دياب

إسم العمل: ليكن ذلك .. الليلة / **مجموعة قصصية**
الكاتب: عبد الفتاح دياب
رقم الإيداع: **2018\ 23648**
الترقيم الدولى : **978-977-6056-75-6**

تدقيق لغوي وتنسيق داخلي الكاتبة والروائية: هنـاء عودة
تصميم الغلاف: لينا شاهين

شهرزاد للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
القاهرة
هاتف: 01091744511
shahrazadpub@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي إقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة

القانونية.

ليكن ذلك .. الليلة

الإهـــــــــــداء

إلى أمي ...

في حضرتك تتحول كل كلمة مدحٍ إلى هِجاء

الحروف مازالت خجلى من الخروج مني إليكِ

فكلما جئت هي تحت قدميكِ تتخبّط بموضع الجنة فترجع !

إلى أخي ..

أخي الذي فارقني فجأة دون أن يُخبرني

علّه أخذ موعداً مع الموت وسارا في نزهة معاً

وضنّ أن يأخذني معه ليتحاشى ثرثرة الأطفال !

إليـــــهم

إلى الأرض التي فقدت مِلحها، إلى الرفيق الذي فقد ملامحه، إلى حيارى الشوق والدرب، إلى الأبيض والأسود والكلب، إلى صديقة الألم والأمل، إلى حبيبة العمر والنبض، إلى الحَشَر والنخل والشجر، إلى الفوضوي والأنيق، إلى العاهرة والبَتول، للعالِم والجهول، لمبتدعي الرقص، ومدّعي الوعظ..

أنا منكم، أنا أنتم ..

لولا تبادُل الحظ !

الحبْل السُرّيّ

أنا "فريد الجوهري"، كنتُ ذاك الجنينُ المُشاغبُ، غير الأجنّة المغفلين الآخرين، الذين يلعبون بالحبل السُرّي المتصل بهم، لكني ظللتُ أفكر ما كُنه هذا الحبل؟، بأي شئ يربطني؟، ما كُنه ذلك السائل اللزج الغبي الّذي يستفزّني، والكائن الّذي يحملني، أنتقل معه بغير إرادة مني، كلّما ضربته بقدمي؛ ليكف عن الحركة أسمع صراخه فأضحك، لا أعرف من الذي أعطاه الحق في أن يحويني داخله؟!

عند لحظة الحقيقة إنفلتُّ من فتحةٍ ضيّقة أصرخ..

قالوا الصراخَ لأننا ننتقل من عالمنا الرحيب إلى عالم ضيق، لكن في حالتي كنت أصرخ لأني تركت بعض الأسئلة داخلَ رحمِ ذلك الكائن ولم أستطع أخذها معي للخارج.

الأطفال الكُسالى يخرجون عادة برؤوسهم أولاً، أما أنا فقد خرجتُ بقدمي، أحسستُ وقتها بمنشفاتٍ مبللةٍ بمياه ساخنةٍ تُمَرر على جسدي، رأسي في منطقة الحوض تأبى الخروج، ربّما لأنه لا زالت هناك مسائل لم يستطع عقلي حلّها!

نجوْتُ من الغرق في الحوضِ، الأطفالُ المغفلون ينتظرون التسعةَ أشهر كاملةً ليخرجوا، لا يختلفون عن القطط المنزليّة المُرفّهة المنتظرة لأمر صاحبها، أما أنا فقد خرجتُ من بطنِ الكائنِ بعد سبعةِ أشهرٍ فقط، خرجت لعالم أكثر برودة رغم المنشفات الساخنة، كفيفًا لا أرى شيئًا، إنتهزتها فرصة لأفكر في الحبل

السُرّي الذي انقطع بغير إرادة مني ، وتكونت مكانه حُفْرَةٌ غائِرة عرفت بعد ذلك أنّها تُسمى "سُرّة".

قطع تفكيري وشوشات وكأنها تعاويذ إخترقت أذني من كائنٍ آخر غريب حملني ، عرفت بعد ذلك أنها "تكبيرة" ، أخبرني أنني أشبهه ، تهاديتُ من كائنٍ لآخر دون أن أعرف ما السبب وراء تلذذهم بحملي ، وبعد وقتٍ أبْصَرْتُ ، ففزعت حينما رأيت كائنًا يُحملق فيّ يريد إلتهامي ، حاولت أن أجري لكن لم أستطع فصرخت ، ثم خرست تمامًا حينما جذبني ذلك الكائن ، ووضعني في حِجْره ، ألقمني ثديه وهو ينظر لي نظرة خيلاء وانبهار قائلًا لي في أذني أيضًا " إنني أشبهه " ، هذا الكائن هو أمّي!
على أعتاب مدرستي الإبتدائية ، تشبثْتُ بيد أمي التي أصرّت أن تدخل معي إلى المدرسة ، لكنها مُنعت من الدخول ، وفصل بيننا مشرف المدرسة بقسوة ، أوصد الباب في وجهها وفي قلبي ، كرهت أمي كرهًا شديدًا ، كيف تُفرّط في إبنها هكذا ، كيف ترميني إلى الجبِّ وتقول لي إصعد وأنا إبن الستة أعوام؟ ، إلتهمني ذئب الخوف حينها ، لم أستطع أن أركز في أي شيء طوال اليوم ، ظللت أفكر فيما فعلته أمي ، وعصا الأستاذ التي يمسكها في يده ، يهش بها غنم أفكاره ، ويتكيء عليها حينًا آخر ، وله فيها مآرب أخرى عرفتها فيما بعد .

عندما إنتهى أول يومٍ دراسي ، وجدت أبي على باب المدرسة ، إحتضنته وقلت له إني أكره أمي التي بمجرد وصولي البيت إحتضنتني بقوة وقبّلتني ، بدأت تقول لي كلامًا لا أفهمه عن المسؤولية وأني كبرت! ، المهم تظاهرت أنني فهمت ، ثم

توجهت لغرفتي وفي مخيلتي عصا أستاذ اللغة العربية والدين تتلوى كثعبانٍ أقرع.

توالت الأيام .. وفي يومٍ قرأ الأستاذ علينا " قل هو الله أحد" ، وبدأ يقول لنا إن الله يسكن السماء ، ولا يستطيع أن يراه أحد ، فنهضت من مقعدي ، وقلت له صارخًا إن الله معي في حقيبتي ، فبدأ زملائي النظر إلى حقيبتي بلهفةٍ ؛ ليروا ما فيها ، بينما إحمرّ وجه المعلّم ، وجاءني جازًا على أسنانه يسألني كيف أن الله معي ؟
فتحت حقيبتي ، وزملائي ينظرون في فضول ، والمعلم في غيظ ، أخرجت منها "ساندوتش" مربى ، وقلت له "الله" بداخله.

ما إن سمع المعلم ذلك مني ، حتى جلب عصاته ، وضربني على مؤخرتي ويدي بعنف ، حتى انبحّ صوتي من البكاء والصراخ ، وحين إنتهى أمرني أن أعود لمقعدي ، لم أستطع الجلوس من شدة الألم ، فظللت واقفًا أبكي ، وأنا أسمعه يقول إن الله في الأعالي ، جبار ، منتقم ، وسيسخطني قردًا لأني تكلمت عنه بالسوء ، فأغمضت عيني وأنا أرتعد منتظرًا أن يسخطني الله ، رغم كل الألم ، تساءلت هل سيكف المعلّم عن ضربي إذا ما صرتُ قردًا ؟ ، وهل سأبقى في بيتي أم سيرمونني في حديقة حيوان مع القردة من بني جنسي ؟
بكيت لأبي عند باب المدرسة ، فسألني فقلت له إن المعلم ضربني ، وإن الله سيسخطني قردًا ، سألني من قال لي ذلك ، قلت معلم الدين ، فسكت.

عندما وصلنا البيت ، فزعت أمي من منظري ، عندما رأت يدي المُنتفخة ، وأقسمت أنها ستأتي معي غدًا لتأديب المعلم الذي فعل ذلك بي ، فطلب منها أبي أن تهدأ.

سألني أبي لماذا ضربني المعلم ، فقلت له إنه قال الله موجود في السماء ، فإعترضت بأنه موجود في "الساندوتش" ، أنت أخبرتني أن الله جميل ، موجود في كل جميل ، و"المربى" جميلة وأنا أحبها.

قبل أن يرد أبي ، أخبرته أني أكرهه لأنه كذب عليّ بشأن الله ، وأني أكره أمي لأنها تركتني في أول أيام المدرسة ولم تصاحبني ، والمعلم الذي ضربني ، وجدتي أيضًا التي تسكن معنا لأنها لم تفعل شيئًا ، والقرود ، بل و أكره "المربى" !

كل الذي شغل بالي حينها أمران ، أولهما أن أستعدَّ لحياة القرود ، ففكرت أن أشتري كمية كبيرة من "الموز" و "السوداني" حتى أستطيع الأكل ، أما الأمر الثاني هل سيظل "وسام" صديقي المقرب إليّ في المدرسة صديقًا لي بعد أن أصبح قردًا.
في ليلتها ظللتُ أدعوا الله كما علمني أبي ، دعوته أن يسخطني "أسدًا" بدلًا من "القرد" ، فالأسد ملك الغابة ، وقوي جدًا ، والكل يخافه ، عرفت ذلك من قناة "ناشيونال جيوغرافيك" ، ظللت أدعوه حتى نمت.

في اليوم التالي طلبت من أبي شراء "الموز" و "السوداني" فضحك ، وقال لي ألا أخف ، لن أتحول لشيء ، وأنه ذاهب معي اليوم إلى المدرسة ؛ لملاقاة مديرها ،

وتحرير شكوى في المعلم الذي ضربني ، ففرحت جدًا من طمأنة أبي بذهابه معي.
لم أرَ ذلك المعلم بعد ، أخبرني أبي أنه انتقل إلى مدرسة أخرى ، ففرحت جدًا ، ودعوت الله أن يسخط المعلم فأرًا.
في خُطَب "الجمعة" أنصت جدًا لخطيب المسجد ، أحب حكايات الصحابة التي تظهر نُبلهم ، غير أنّ هذه المرة سمعت الخطيب يصيح من أعلى المنبر ناصحًا إيانا إذا وجدنا أحد المارّة وهو على غير ديننا أن نزاحمه ، ولا ندعه يمر بسلام ، هكذا أمرنا ديننا ، ومن لم يفعل ذلك فهو آثم قلبه ، وسيسخطه الله ، كنت وقتها في المرحلة الثانوية ، لم أعرف منه إلى أى الكائنات سيسخطه "الله" هذه المرة ، وما حكاية السخط مع هؤلاء.

حين بدأت المرحلة الجامعية ، بدأت لا أواظب على صلاتي ، لم أنكر أنني حين أصلي أشعر براحة في قلبي ، لكن شعرت بمثلها عندما أتصدّق إلى سائلٍ أو محروم ، والتصدّق مرتبط بالإنسانية قبل أي دين.
تسللت الأفكار إلى عقلي ، كيف الحال إذا لو اكتشفت أننا في ضلالٍ ، والآخرين الذين هم يعتنقون أديانًا أخرى على حق ، ماذا لو خَلق الكون فعلا صدفة ، أو أنّ هناك قوى كبرى تحكمه ، ماذا لو أن "الله" هو مجرد فكرة فقط.
انقطعتُ عن الصلاة ، وصرت أدخل في نوبات اكتئاب لا أعرف مصدرها.
في الأيام الأخيرة في حياة جدتي الأميّة لاحظت شيئًا غريبًا تفعله لدرجة أني راقبتها ، وجدتها تصعد إلى سطح البيت كل يومٍ في الصباح والمساء ، مهما كان الجو باردًا أو حارًا.

ازدادت حيرتي من أمرها ، فلا يوجد شيء على السطح ، كخزين للبصل أو الثوم أو هناك طيور ؛ لتطمئن عليها ، ثم إنها مريضة وبالكاد تمشي ، لأي شيء تتحمل هذه المشقّة .

تصعد بعكازها ببطء ، هذه المرة أنا وراءها ، أختبيء منها كي لا تراني ، فتحت باب السطح ، تسللت منه ، كنا في الصباح ، وضعت عنها "عكازها" ، رافعة يديها ووجهها إلى السماء قائلة : "صباح الخير يا الله" .

ما إن سمعتها حتى سمعت جواب "الله" عليها في قلبي ، فاطمأن.

****

بعد عشرةِ أعوامٍ من الرحيل

رآها فتحرّك كل ساكنٍ ، وكأنّ العشرة أعوام التي مضت على فراقهما كانت البارحة ، تصبب عرقًا ، ودعس جبهته يفكر ماذا سيفعل ، احتار في أمره جدًا ، كلما وصل إلى شاطيء القرار ، داهمته الحيرة تدفعه نحو الغرق.

"هل أعرّفها بوجودي ، أم أتجاهلها ، أعدو نحوها لأحتضنها ، ونُكمل حكاياتنا ونسير فرحين إلى مكاننا الأثير المُطّل على البحرِ كأننا ودّعنا بعضنا أمس فقط ، لكن ماذا لو صار لها حبيبًا ، عشرةُ أعوامٍ فترة كافية أنْ تُعمّر خرائب القلب ، وتؤثث خرائط جديدة للحب ، لكن ماذا لو تجاهلتني ، لو نهرتني ، لو ادّعت أنها لا تعرفني ومشت وسط مرأى ومسمع من المارّة ، لكن ربّما لن تعرفني فعلًا ، أعوامٍ عشرةٍ أظنها غيّرت ملامحي ، شحُبْت فيها ، فقدت كثيرًا من وزني ، طالت لحيتي وغزاها كثير من الشعر الأبيض ، لكن بحق السماء كيف هي إلى الآن تحتفظ بجمالها ، مازالت تضع أحمر الشفاه الذي أحبّه ، وترتدي خلخالها المُحبب إليّ ، راسلة شعرها الكثيف منسدلًا على كتفها الأيسر بالطريقة التي أحبها ، إذن هي وفيّة لم تنسني والطريق سانحة لأحدّثها"

يُراقبها وهي تتجوّل وسط السوق ؛ لتبتاعَ بعضَ مستلزمات بيتها من الخضروات والفاكهة ، مكتظ جدًا بالباعة والزبائن ، إيقافها والتحدث إليها بعد هذا الغياب ووسط الزحام لفكرة غير سديدة ، لذ توجه إلى ناصية الشارع حيث آخر السوق ، وما وصلت إليه حتى ناداها ، حين رأته رجعت خطوة للوراء ، بلعت ريقها بصعوبة ، أربكها جدًا لُقياه ، لم تستطع حتى أن تنبس بكلمة ، اكتفت

بالذهول ، سألها عن حالها ، لم ترد ، شعرت بأن العمار الذي ملأ قلبها صار حطامًا فوق حطام ، سبّته كثيرًا في نفسها ، سألها عن حالها:

- الحمد لله
- عشرةُ أعوامٍ يا سعاد ، لم تتغيري
- أنت تغيّرت كثيرًا ، لكن بحدسي عرفتك
- حدس المُحب
- أنت أنذل الناس ، لا تأتِ بسيرة الحب ثانية
- سامحك الله
- لا سامحك أنت ، كيف استطعت أن تهجرني طيلة هذه السنوات ، نعم كان فراقًا مُتفقًا عليه لكن كيف استطعت أن تحتمل ؟
- ألم يكن الفراق رغبتك ، ثم من قال أنّي استطعت ، سافرتُ لأنساكِ لكني فوجئت أني أتذكركِ أكثر ، اكتشفت أنكِ مُعتّقة بين جلدي
- وهل من عاقلٍ يُصدّق الأنثى ؟ .. سافرت وقابلت غيري ، أتزوجت أو الأهم هل أحببت ؟
- حاشا لله ، وأنتِ ؟
- بقيتُ على حالي أذكرك وأتذكّرك وأذُاكرك
- حبيبتي

بكتْ ، ودّت لو ارتمت في حضنه ؛ لتعوض هذه السنوات من الجفاء والفقد ، لكن منعها تحديق المارّة بهما ، تذكرت لتوّها أنها وسط الناس في الطريق ،

طلب منها أن يلقاها على المقهى المُطل على البحر حيث كانا يرتاداه كثيرًا في تمام الساعة الثامنة .

كان هذا الحديث الذي يودّ أن يحدث ، لكن ما حدث فعلًا بعد أن استوقفها ، أنها لم تتعرف عليه من البداية ، لم يعرف أكان تمثيلًا لإظهار كبريائها ، أم فعلًا لم تكن تعرفه ، سألها عن حالها:

- ما أخبارُكِ ؟
- الحمد لله ، وأنت ؟
- الحمد لله ، أتسكنين هنا ؟
- نعم ، وأنت ؟
- هنا أيضًا
- هل أصدرتَ روايتك
- لا ، فقدتُّ إيماني بالكتابة ، أشتاقكِ جدًا يا سعاد
- بالله عليك ، كف عن هذا الحديث.
- لمَ ؟
- أنا الآن متزوجة ولي بيتي وابني ذو ثمانية أعوام.

ارتبك وقطَب جبينه سائلًا: أتحبينه ؟

- نعم ، وماذا عنك ؟
- تزوجت أيضًا ولي منها طفلين ، هذه بلدتها وانتقلت معها لأن أمها في حاجة إليها ، سنصبح جيران كما الماضي

- مبروك ، لا بد أن أغادر الآن فابني ينتظر أن أجلب له الطعام
- وهم ينتظروني أيضًا ، تفضلي
- مع السلامة

رجع إلى بيته الخاوٍ إلا من الوحدة كملكٍ مهزومٍ ، يطلبُ من الله أن يُسامحه على كذباته ، بشأن زوجته وأطفاله الوهميين ، وأنه لم يتزوج سوى الوحدة ، ولم يُنجب سوى الوجع ، وبشأن روايته التي لم يصدرها ، حيث أنه كتبها ونُشرَت له ، وصوّر بطلها بأنه العاشقُ المتيّم الذي هام على وجهه لتتبع أثر محبوبته التي فارقته ، وأصيب بلوثة من جنون.

أما هي لم تعرف كيف استجمعت قواها وأظهرت كل هذا البرود ، كان عليها فعلًا أن تغادره ، وإلا كانت ستبكي بمرارة ، فأسألته أربكتها وأشعلتها "أتحبينه ، سنصبح جيران مثل الماضي" ، لم تعرف أنها قوية جدًا إلى هذا الحد ، وربما أنها كانت قوية جدًا من شدة ضعفها !
عادت إلى بيتها ، وما إن ولجته حتى عدا طفلها نحوها فاحتضنته بشدة باكية كما لم تبكِ من قبل.

لم تُعارضه حينما أخبرها أنّ روايته لم تصدر وأنه اعتزل الكتابة ، الرواية التي قرأتها وحفظتها عن ظهر قلب ، فحزنتِ حزنان أولهما بسبب القطيعة والثاني بسبب افترائه حين رسم صورة مُخزية للبطلة ، ولأنها تعلم أنّ الكتابة حياته

جمعتِ أعدادًا مهولةً من روايته لتساعدها على الانتشار ، ودلّت عليها معارفها ، حتى يُكمل حلمه الروائي ، وهي التي وعدته بأنها ستقف بجواره ليُحققه.

ودّت لو أخبرته بأنها ظلّت طوال الأعوام تنتظر مُعجزةً للرجوع ، وأنها تزور مكانهما الأثير رغم أنه صار مرتعًا للكلاب الضالةِ وللخوف ، وأنها ما زالت تؤثث بيتها على طريقته التي كان يحلم بها ، بل وتؤثث جسدها بطريقته المُحببة.

كل هذا تُفكر فيه سعاد ، وطفلها يقف منتظرًا أن تقدم له طعامه ، طفلها الذي سمّته على اسمه كعقابٍ لها على القطيعة.

وفي الأخير حمدت الله أنها استطاعت أنْ تكذب عليه بشأن زوجِها الذي فرّ منها بعد زواجهما بعامٍ واحدٍ ؛ لأنه لم يعد يتحمّل أنْ يسمعها كل ليلةٍ تنادي باسمه !

****

الزائرون ليلًا

يزوروني في الليل ، أراهم يجيئون جماعاتٍ يهتفون بإسمي ، وأحيانًا يأتون فُرادى ، لا أعرف أأنا الذي يستدعيهم ، أم هم يستدعونني ؟ ، أأنا الذي أذهب إليهم أم هم من يأتوني ؟ ، لكن الذي أعرفه جيدًا أني أحبُّ لُقياهم جدًا وأنتظره.
لا أستطيع أن أخبر أحدًا عنهم وإلا اتهموني بالجنون والشطط ، أخبّيء أمرهم في صندوق عقلي جيدًا وأحكم الغلق ، نمارس معًا قدسية الحزن ، والغناء ، واللعب أحيانًا ، أتمنى لو يبقون معي دائمًا ، لكن لا أعرف ما الذي يمنع ذلك ، فأرضى بوقتي القليل معهم.
أسمع خطواتٍ قادمة ،أشم رائحة صاحبها ، فأبتهج ، جاءني أبي مسرورًا ، قبّلني ، كان يلعب معي وأنا صغير لعبة "الغميضة" ، أغلق عينى ، ثم أبدأ في العد من واحدٍ لعشرة ببطء ، أبحث عنه ، لكن لا أجده ، أغتاظ ، أدبدب برجلي على الأرض ، بعدها أجد أمي تحاول إلهائي بمشاهدة التلفاز فأنساه.
في مرةٍ ألححتُ عليه أن يبدأ هو بغلق عينيه وأنّي سأختبيء ، امتثل لأمري حين وجدني مصرًا وأوشك على البكاء ، ما إن أغلق عينيه حتى ذهبت باتجاه باب البيت ، فتحته ثم أغلقته ورائي برفق ، بحث عني أبي لكنه لم يجدني ، ربما توقع أني نمتُ ، أو دخلت الحمام ، فوجدها فرصة ، فتح باب البيت ليخرج فوجدني أمامه ، فرجع أبي إلى الداخل معي ، وقرر ألا يخرج هذه المرة.
عرفت بعدها حين كبرت أنها كانت حيلة من أبي ليذهب إلى عمله ، أو السمر مع أصدقائه ، أو السفر ، ولأني أصرخ باكيًا حين يخرج أمام عيني لعب معي هذه اللعبة ؛ ليخدعني.

كل مرة أذكّره بذلك الأمر يبتسم مفتخرًا بي ، ويقول لي إني كنت طفلًا ذكيًا ، فأبتسم.

آخر مرة رأيت فيها أبي كانت منذ عشرة أعوامٍ ، ومن وقتها وأنا أبحث عنه مثلما كنت أفعل في الماضي ، لو يرجع لأغمضت أنا عيني كل مرة ، وادّعيت أني لا أعرف بأمر خروجه ، ولا ألومه على تأخر عودته.. لو يرجع.

قبل أن أذرف دمعتين أشمّ رائحة ذرةٍ مشوية ، وأسمع غناء بصوتٍ متهدّج ، فأعرفها على الفور ، تجلس في ساحة البيت كأسطورةٍ فوق وسادة متهالكة على الأرض ، ومن حولها الديكة والدجاج يحومون كأطفالها ، ترمي لهم حبات الذرة والغلّة فتلتقطها ، تربط رأسها بإيشارب أخضر لمحاربة الصداع ، وينسدل منها جديلتان وديعتان كنهرين ، تجلس تهفُّ على الذرة بورقة كرتونية ، وتغني بعض مقاطع لأم كلثوم ، كلما نست مقطعًا ، أكملت بأغنية أخرى.

ما إن تراني قادمًا تقول لي "تعالا .. يا واد " ، أجرى عليها ، أرتمي في أحضانها ، وفي حجرها أتمدد ، تُمسّد شعري أحس أني دخلت في حماها آمنًا ، لن يضرني شيء أبدًا.

بعدما تنتهي من شوي الذرة ، بدلًا من أنْ تأكل ، تعطيني كوزين ، ثم تقوم من مقعدها بصعوبة ، تمشي مقوسة الظهر ، في يدها تجمع كيزان الذرة ، أراها اتجهت للشارع توزّعهم على عابري السُبُل ، ولمّا رأتني اندهشت قالت" حرام عالبطن تشبع وخلق الله محرومين" ... يدهشني أن أرى في بيتها كل مالذّ وطاب من الطعام ، وهي فقيرة ، ربّما تساقط عليها الرزق رُطبًا جنيّا !

تضع برّاد الشاي على بقايا النار ، لنشرب سويًا أجمل شايًا شربته في حياتي ، ليس لجودة نوع الشاي ، بل لأنه على الفحم ولأنه من يد جدتي ، الذي يصير بها كل شيء جميلًا كغير عادته.

أبدأ أستدرجها لتحكي لي كيف تعرفت على جدّي ، فتبتسم وتقول لي : " انت طالع فلتان لمين يا مأروص" ، فأضحك ، تحكي أنها كانت تغسل أوانيها في ترعة البلدة ، وذات مرة كان الحمل ثقيلًا ، وكادت أن تتعثر حينما وضعته على رأسها ، فساعدها فتى كان مارًا بالصدفة ، كان هذا الفتى جدي ، ومن يومها صارت تتعثر كل مرة حتى لو لم يكن الحمل ثقيلًا ليساعدها الفتى.

ما إن أسمع تلك القصة حتى أضحك ، فيحمرّ خدّاها الّذان زحفت إليهما التعاريج زحفًا ، ربما لتكسب ودّها.
تدريجيًا تغيب عن أنفي رائحة الشواء ، ورائحة صبر جدتي ، وأشم رائحة الحلوى ، وإذا ذكِرت الحلوى ذُكر "حسين" جاري العزيز الذي صادقه الموت بعد إغماءة سكر عصيبة.
يطلب مني أنْ نفترش الأرضَ كما كنّا نفعل ، يفتح لفافة كبيرة مليئة بالحلوى من كل صنف ، يغترف منها غرفًا ، حين أود أن أتكلم يمنعني ، يُقدّر الحلوى كما لو كانت ابنته أو أمه ، لا يريد حتى التحدث في حضرتها ، حين وقفتْ في حلقه قطعة منها ، أسرعتُ لأسعفه بكوبِ ماء ، ضحك بشدة من فِعلتي ، ثم بلع ريقه وقال: "الأمواتُ لا يموتون مرتين."
يأتيني أخي -الذي سار في نزهةٍ مع الموت ، ولم يأخذني معه متجنبًا ثرثرة الأطفال- مبتهجًا ، يملأ الدنيا بوجوده ، ربما علم بقصر عمره فأقسم على أن يترك في الدنيا أثره ، طلب مني أن أحكي له ما بداخلي ، كما كان يحثني دومًا ، حين أخبرته أنّ حبيبتي هجرتني ، ابتسم وقال"لا تخفْ.. سيعضُك الحبُ ثانية من حيث لا تحتسب"
قال لي وهو راحلٌ كعادته: "رحلتُ عنك ناقصًا عناقًا.. هيّا عانقني.

أستيقظُ بعد رؤيتهم جميعًا ، أقبّل يد أمّي في الصباح قائلًا " إن أردتي الذهاب لأي مكان ، لا تنسي أن تأخذيني معك! "

****

الحصارُ الرحيم

لا أحد يجرؤ على الخروج من بيته مطلقًا ، كلما فكّر أحدهم في الخروج وتخيّل مصيره وأد فكرته فورًا.

النساء بدأنَ في صنع الخبز بأيديهن في أفرانهنّ الخاصة ، وطهي الطعام على "الكانون" ، ولمّا نفد الطعام المُخزّن ، أقبلّنَ على الديكة والدجاج تذبحونهن واحدًا تلو الآخر ، لكنهم لا يدرون إلى أي وقت سيستمر الطعام معهن.

الوضع الجديد أوقع بعض الأهالي في ورطات ، بدأت بطن "سمية" تنتفخ شيئًا فشيئًا ، ولن تُسعفها ملابسها الفضفاضة مدة طويلة ، عليها أن تقابل "محمود" ؛ لتحدد مصير الجنين القابع في بطنها قلقًا على مصيره ، تتساءل في حيرةٍ: هل سينكره أم سيعترف به ، هل سيعرض عليها الهرب ، ماذا لو عرض هل توافق ، ماذا لو اكتشف أهلها حقيقة الأمر ، حتمًا سيشونها مع الديكة .كلها أسئلة ومخاوف راودتها عن نفسها ذهابًا وجيئة.

"محمود" هو الآخر يُفكّر متسائلًا: " ماذا سأفعل ، هل أخبر والدي المريض بالقلب ليمت من أثر الصدمة ، أم أخبر أمي التي كانت تعلق عليّ آمالًا عريضة ثم قصصتها لها في الأخير ، أنهرب ، لكن إلى أين ومن أين ، وأنا لازلت طالبًا آخذ نقودي من أبي"؟؟.
يعتبر "حسين" أن ورطته هي شوقه لملاقاة "دلال" ، وخطف بعض القُبلات منها ولو على عجل ، وهي أيضًا مثله مخمورة بشوقها له.

الجنود المحتلة يُحاصرون القرية بأكملها ، بعد أن اغْتِيلت شخصية مرموقة في الجيش ؛ ورغم أنهم ألقوا القبض على مرتكبيها ، وتأكدوا أنه لا يسكن في تلك المنطقة ، إلا أنهم فرضوا حظرًا قويًا على أهالي المنطقة من الخروج من بيوتهم .
بدأ كل رب أسرةٍ يُعلّم أطفاله القراءة والكتابة على أقل تقدير ، يجلس الزوج مع زوجته بدلًا من ارتياده مقاهي البلدة التي عاشرها أكثر منها ، وصارت الزوجات أيضًا تُجالس أزواجهم بدلًا من مشاهدتها التلفاز لقتل ضجرها ومللها المعتادين.
حتى الأبناء أصبحوا قابعين في البيوت يشاركون آبائهم الحديث ، بدلًا من التسكع وقضاء الليالي على أرصفة البغاء والمقاهي وفي المواخير.
شهرٌ بأكمله مرّ على ذلك الحصار دون أي أنباء تُبشّر بأى انفراجة.

تبكي "زينب" كما لم تبكِ من قبل حين تختلي بنفسها ، عندما تتذكر أنها بيدها قدمته وجبة لجارتها أم "زيدون" ، حتى لم تستشره في الأمر ، بعد عِشرة سنوات جمعت بينهما ، كان ملكها بل ابنها الذي لم تلده ، كانت تخاف عليه جدًا ، بل وتُغار عليه ، فلا تتركه يشاكس الدجاجات اللائي في حوش البيت ، وأحيانًا تأخذه في حضنها وهي نائمة رغم صوته الذيّ يقضّ المضاجع.

يسحب الديك الأحمر نفسًا يملأ به رئتيه كي يؤذن ، فتصحو "زينب" على صوته الذي لا تجده مزعجًا بالمرة ، يؤذّن لأنه يرى الملائكة تمر أمامه كما مُشاع ، لكنها تراه هو الملَك.

لا تنسى الليلة التي عمد زوجها إلى ديكها ليقص ريشه ، انتقامًا منها لأنها رفضت معاشرته ، حينما رأت زغبه يتساقط منه ، لم تتمالك نفسها ، عدت نحوه ،

ماسكة ياقة جلبابه ، تحاول خنقه ، فرمى الديك الذي صاح ، وتخلص من قبضتها بصعوبة ، اندهش من فِعلتها ، ثم خرج من البيت.

رغم كل ذلك لم ترفض طلب جارتها أم "زيدون" حين أرادت أن تستعيره ؛ ليتشاكس مع دجاجاتها ؛ لأنها بحاجة إلى البيض ، لاسيما أن كل ديكتها ماتوا أو ذُبحوا.

أخذت "زينب" تسترق السمع لبيت جارتها أم "زيدون" لتسمع صيحاته حينما تفتقده ، تطمئن عليه ، فتهدأ ، لكن لم يدم الهدوء طويلًا ، حين توقفت صيحات الديك لفترة ، توجسّت من ذلك ، نادت بصوتها العالي على جارتها التي أخبرتها بأن الديك قد مات!

منذ ذلك الحين قاطعت "زينب" جارتها ، رغم أن الأخيرة أقسمت أنه ليس ذنبها ، عشر سنوات هي عمر القطيعة بينهما ، ولا أحد يدري إلى متى ستستمر.

بعد موت ديكها ، أرسلت أم "زينب" زوجها لبيت جارتها لتأخذ جثة الديك ، بعد رفضٍ منه ومناقشات ، أجبِر على الذهاب لأنه يعرف رأس زوجته ، توجه للبيت مترددًا ، لا يعرف ماذا سيقول لهم ، حين فُتح الباب ، سأل أم "زيدون" أن تجلب الديك ، فقالت له وما نفع ذلك الديك قد مات ، جاوبها بأن زوجته تريده حتى وهو ميت ، تعجّبت منها ، وأحضرته له.

ودّ زوج أم "سعدون" لو رماه للكلاب لتأكله ، وبذلك يكون للديك فائدة ، لكنه يحبّ زوجته حبًّا جمًّا ، لا يريد أن يغضبها ، وهو من قبل تحمّل عقرها ، رغم محاولات إقناعه من قِبَل أمه وأهله أن يتزوج غيرها ، لكنه رفض بشدة.

حين رأت أم "زينب" الديك احتضنته باكية ، ذهبت به إلى مطبخها ، وضعته في ماءٍ بخل لتنظّفه ، وجاءت بأعواد حطب من تحته ، وبطريقةٍ ما ثبتته عليهم ، وحاولت أن تجعل رأسه مرفوعًا ليظهر وكأنه حي ، وبعد محاولات عديدة نجحت في ذلك.

كل يومٍ تذهب به إلى المطبخ تضعه في الماء والخل حتى لا تظهر ريحته ، ثم تُجففه ، وتضعه على العيدان ، وتتخيله يصبح.

تعب زوجها من ذلك الحال جدًا ، وتذمّر منها ، ظنّ أنه بموت الديك سينتهي كل شيء ، لكنه لم يسلم من الغيرة منه ميتًا كما غار منه حيًا ، حكى لصديقه الأمر ، فنصحه الأخير بأن يذهب بزوجته لطبيب نفسي ، لكنه رفض الفكرة ، فكيف سيقنع زوجتها أنها تذهب إليه ، لا يريد أن تكرهه بسبب ذلك ، ولا يريد أن تعرف جاراتهنّ من النسوة ذلك وإلا كانت فضيحة.
عزم الأمر ، وقال ليحدث ما يحدث ، استغلّ نوم زوجته ، وذهب إلى الديك الذي في باحة البيت ، حمله من ساقه ، ورماه إلى الكلاب خارج بيته ، ورجع.
صحت أم "زينب" ، صرخت حين لم تجد ديكها مكانه ، بحثت عنه في كل مكان ، سألت زوجها عنه فأنكر أنه يعرف شيئًا ، قال ربما التقطته هرّة أو كلب مسعور.

تقضي أم "زينب" نهارها في البكاء عليه ، وليلها في النوم ، لم يرضَ زوجها بحالها ، فبدأ التحدث معها بلين:

- راضية عن حالك كده

ردت مقتضبة:

- وإيه أعمل ؟
- ترجعي زي زمان وردة مفتحة ، ليه الهم والغم ده كله
- أصلك قاسي
- ده ديك زي أي ديك ، ربنا خده لحكمة
- وإيه حكمة ربنا إنه ياخده وأنا بحبه ، هو عاوز يعذبني وخلاص
- أستغفر الله العظيم يارب ، استغفري ربنا
- ولو استغفرت هيرجعهولي
- بقولك استغفري ربنا
- هيرجعهولي

لم يتحمل زوجها كلماتها ، فقال بعصبية:

- مش هيرجعه ، وأنا اللى رميته للكلاب بره البيت

صرخت ، ثم توجهت إليه تريد ضربه فأمسك يدها ، قائلًا وهو يهزّها:

- إيه اللي حصل ، ديك ومات ، بدل مترضي بحكم ربنا ، إنك مبتخلفيش وتصبري ، تروحي تكفري ، وكل ده عشان ديك

ردّت باستكانة والدموع تنهمر من عينيها:

- انت عارف إن الديك مكنش ديك والسلام ، كنت شايفاه ابني اللي معرفتش أخلفه ، كنت بصبر نفسي بيه ، وأنا عارفه إن ده حرام

إحتضنها زوجها ، هامسًا في أذنها أن تهدأ ، ثم أسندها متجهين إلى سريرها ، وضعها عليه ثم أخبرها بأنه سيتركها ، لكنها رفضت مغادرته ، وطلبت منه أن يستلقي معها على السرير ويحتضنها.

بقيا معًا ممددين على السرير لساعات طِوال ، توقفت فيها عن التشنّج ، وراحا في سباتٍ عميق ، لأول مرة تشعر بكل ذلك الدفء والطمأنينة مذ تزوجته ، بعد أن أفاقا حاولت أن تعتذر له عن كل تلك السنوات التي كانت فيها مضطربة ، فوضع يده على شفتيها ليمنعها من تكملة حديثها ، فناما من جديد.

في تلك الفترة العصيبة من الحصار ، وجد "سالم" زوجته تشد من أزْره وتزرع فيه قمح الأمل حين يتأفف ، تفاجأ من مساندتها ، وكأنه متزوجٌ من أخرى لا يعرفها ، وهي الشكّاءة البكّاءة دومًا ، بعد أن قرر من قبل تطليقها عدِل عن الفكرة ، فحصار في الخارج أحدث انفراجة في الداخل.

لكن في بيتٍ آخر هناك حصاد يأسٍ ، طلّق "شعبان" زوجته ، الذي اكتشف من معاشرتها أنها سيئة المعشر ، حيث وجد نفسه مرغمًا على الجلوس معها ، وساعده في ذلك أنهما لم يُنجبا بعد ، رغم ذلك ظلت في بيته ، حبيسة غرفتها ، لا تجرؤ على الخروج ، مجبرة على ذلك الوضع الغريب.

من بين شوارع القرية هناك شارع يُسمّى "الأخوة" يسكنه كل هؤلاء ، أتى ذلك الحصار ففرّق شمل ساكنيه ، وأجّل بعض المشاريع المُتّفق عليها ، مثل مشروع

"سمعان" و "راتب" على افتتاح مقهى في الشارع بالشراكة بينهما ، وبالفعل ، بنوا مكانًا وأوشكا على افتتاحه قبل الحِصار.
"سمعان" غير متزوج ، لذا يعتبر كل بيوت القرية بيته ، معروف بين أهل القرية بعدم الاستسلام ، لم تمنعه خساراته في مشروعات تجارية من اليأس ، ومشهور أيضًا بالألفة والاجتماعية العجيبة ، فمن الممكن أن يدخل عليك بيتك دون استئذان إذا وجد الباب مفتوحًا ، لم يكتفِ بذلك فقط بل ممكن أن يذهب إلى مطبخك ؛ ليصنع له كوبًا من الشاي الثقيل ، أو يأكل ما تبقى من طعام ، ثم ينام في باحة البيت.

جاء الحصار عليه طامة كبرى على مشروعه ونفسيته ، وهو الذي لا يطيق الجلوس في البيت ، فخطرت بباله فكرة ، ساعدته في التفكير فيها بيوت الشارع الملتصقة ببعضها البعض ، حيث يفصل بين كل بيت والآخر سور صغير ، فأخذ يُكسّر في السور الذي يفصله عن جاره "راتب" ، وبالفعل خلق كوّة في الجدار نفذ منها.

يخرج "راتب" من غرفته متثائبًا إلى حوش بيته عند سماعه الطرقات ، وهو يفرك عينيه ، يرى جسدًا ممتلئًا يخرج من تلك الكوّة ، وقبل أن يجهز عليه وجده "سمعان" الذي لم يمنحه فرصة أن يسأله لمَ فعل ذلك ، بل ذهب إلى مطبخه ليصنع له كوبّ شاي لكنه لم يجد سكر ، لم يسأل عنه بل رجع لبيته من خلال تلك الكوّة التي صنعها ، وأحضر معه كيسين سكر ، ثم أعدّ له الشاي ، دون أي استغراب من "راتب" الذي اعتاد منه على ذلك وأكثر.

يبدأ "سمعان" الحديث مع "راتب" وزوجته حول مشروع المقهى بحماسة كأنّ الحصار سينقضي غدًا ، و "راتب" منصت له ولرشفاته التي تدوّي في حوش البيت.

يقترح "سمعان" عليه أن يُحدثا كوة أخرى في الجدار المقابل المشترك مع جاره "عطا الله" فوافق ، اقترح "راتب" بدلًا من أن يصنعا كوّة ، أن يهدما جزءًا من أعلى السور ، ثم يثبان من خلاله لجارهما ، فأخذا يضربان السور بفأسهما ، لمّا انتهيا نفذا من خلاله إلى "عطا الله" ، وجداه خارجًا عليهما بفأسه ظنًا منه أنّ بعض الجنود تسللوا إلى داره.
أفهماه الأمر ، وبدأوا في إحداث ذلك الفعل مع كل جار ، وساعدهم على ذلك الأسوار المُنخفضة المُقامة بالطين اللبن ، حتى استطاع كل أهل الشارع أن يتلاقوا مجددًا.

أخذوا يُشكّلون حلقة حكي كل مساء في بيت أحدهم بالتناوب ، إذا ما نفد شيئ في بيت أحدهم أمدّه الآخر به من طعامٍ أو شراب ، يجلسون أرضًا حول شعلةِ حطب ، حين تنطفيء لا يشعلون المزيد ، اقتصادًا في الحطب الذين يستعملونه في إشعال مواقد طهي طعامهم ، تاركين الفرصة للقمر مساعدتهم في الرؤية.

يتسامرون ،يضحكون ملتصقين ، وأحيانًا يتمسّحون في بعضهم البعض كهررة تتمسح في صاحبها ، يشحذون الدفء شحذًا.

في الجلسة "سمية" الحامل في جنين لا تعرف مصيره ، و"محمود" أيضًا ، يتطلعان إلى بعضهما في خِلسة من الحاضرين ، بينما شاء القدر أن يجلسا "حسين" و "دلال" بجوار بعضهما.

تحدث أول من تحدّث أم "زيدون" ، قصّت على الحاضرين ، كيف كانت تربط حذاء زوجها الذي كان لا يعرف ذلك ، فضحك الجميع إلا هي ، أذرفت دمعة على غير مرأى من الحضور ، رغم كل تلك السنين التي مرّت على فراقه كلما تذكرته بكت ، بل تشعر بالذنب إذا تأخرت في البكاء ، تمايلت النار يمنة ويسرة فجأة ، رغم عدم وجود ريح ، لم تعرف العجوز إلى الآن هل كانت النار تُلبّي رغبةَ زوجها المُتوفي -الذي سار في نزهةٍ مع الموت- في الضحك أم في البكاء ، هكذا الأموات يضحكون ويبكون في هزّة سريرٍ أو صرير بابٍ أو اصطكاك نافذةٍ .

هفهفات الهواء المُحمّلة بروائح الرياحين ، والياسمين ، وشجر "مسك الليل" تداعب الأنوف ، وتجليّات "أم كلثوم" المنبعثة من الراديو تداعب القلوب ، بينما يداعب "حسين" "دلال" بقرصها من فخذها ، بعد أن انطفأت الشعلة ، وهمس لها أن تتبعه ، القمر خان الجمع الليلة وبدأ في الخفوت ،لكنه كان وفيًا لهما ، فاستطاعا أن يتسللا على غير انتباه منهم إلى آخر البيت ، بعد حديث وقبلة أو قبلتين وضمّة عزم "محمود" أمره أنه سيخبر والده بالأمر وليحدث ما يحدث.
لا يخلو الحديث كل ليلة من حكاوي "سمعان" وتندراته ، ضحك مقهقهًا كعادته قبل أن يحكي كلمة ، ثم قال:" في ليلة مللت ، فمشيت إلى بيت "سعيد الموزون" ، لقيت باب حوشه مفتوحًا ، فدخلت ، ثم منه لداره ، لم أجد أحدًا صاحيًا ، فنمت في باحة البيت المظلمة ، خرج "سعيد الموزون" من غرفته ،

وفي يده لمبة"جاز" مشتعلة ، مشى ربما قاصدًا دورة المياة ، وأثناء ذلك خبط فيّ ، تمالك نفسه ، لكنه حين رأى جسدي يتحرك نحوه ببطء واقفًا ، رمى لمبة "الجاز" أرضًا ، وطار فزعًا ، خبط في حائط البيت أولًا ، ثم تحسس مكان الباب ، وخرج منه.

عند هذه النقطة تنحنح "سعيد الموزون" كإشارة ليكف "سمعان" عن استكمال حديثه ، بينما قالت زوجته في نفسها "يا فضيحتي".

لم تفلح تلك النحنحات ، وأصر "سمعان" على المواصلة ، فأكمل: " بعدما طار "سعيد" خارج بيته ، تعبت من نوم الأرض ، فدخلت غرفة ونمت على سريرها ، بعد وقت لا أعلمه ، وجدت "عتمان" فتح الغرفة ، وقرّب مني "شمعة" ، وصرخ فيّ: "عتمان" ، قلت له: "اتركني لأنام" ، قال: "نايم في غرفة زوجتي يابن الكلب".

الله يعلم أني لم ألحظ حتى زوجته ، لكني لاحظت شخيرًا غير عاديٍ بالمرّة.

طردني "سعيد" من بيته بعد أن هددني بأنه سيقتلني لكن في صباح الغد.

بعد أن أنهى "عتمان" حكايته ، قال "سعيد الموزون" في نفسه: "فضحتني يا بن الكلب ، والله لأقتلك"

لم يرد "سعيد" أن يطلب من "سمعان" أن يكف عن الحديث ، حتى لا يلفت الأنظار إليه ، وساعده في ذلك ، العتمة التي فُرضت على الجمع.

فجأة سمع بعض الحاضرين حشرجة آتية من حلق أم "زيدون" ، أحست بضيقٍ في التنفس ، حاول طبيبٌ كان حاضرًا إسعافها ، لكن الوقت نفد.

احتار الجمع في التخلص من الجثّة ، صاح "سمعان" فيهم بصوته الجهور: "سنخرج نشيّعها إلى قبرها"

قال الحاضرون تِباعًا:

- سنموت جميعًا
- نموت ما المشكلة ؟
- معهم سلاح كثير بالخارج
- سنهجم عليهم هجمة رجل واحد ونحن أكثر
- ولو فشلنا سنُقتَل ، وهو ما يريدونه ، لن نترك لهم الفرصة لذلك
- إكرام الميت دفنه

يلجأون إلى التصويت لتسوية الأمر ، انشقوا ما بين مؤيد للخروج ومعارض ، لكن الغلبة كانت لمن يرون عدم الخروج ، فتأفف الشق الآخر في عصبية.

قال أحد مؤيدي الخروج:

- إذًا كيف سندفنها ؟
- كما سنُدفن نحن إذا دُفِنّا
- نحفر حفرةً ثم نودعها فيها
- أما من حقها أن تُدفّن في مقابر عائلتها ؟
- نحن مضطرون لذلك

تُغسّل بعض النسوة جسدها ومن بينهنّ أم "سعدون" رغم كبر سنها ، فيما يجمع بعض الرجال ما يجدونه من خشبٍ ليصنعوا نعشًا لها ، بعد انتهائهن من الغُسْل ، نادين على الرجال لحملها ، وضعوها في النعش ، وصاروا إلى بيتها ،

قرأوا بعض آيات من القرآن الكريم ، وبعد أن حفروا لها قبرًا أودعوها فيه ، ربما عرف زوجها المتوفي بخبرها ، فأتاها لربما إلى الآن لا يستطيع ربط حذائه.
دعا من دعا ، ورنّم من رنّم ، ظلّت "زينب" -وقد تقدّم بها العمر- على قبرها تنتحب ، ثم قررت الذهاب لبيتها ، فأوصلها أحدهم إلى بيتها بقنديله ، حين ولجت حجرتها بكت ، وانتحبت بصوت أشبه بصوت الديكة !
قرر الجمع أن يكملوا حلقة اجتماعهم جانب قبر أم "زيدون" ؛ ربما ليؤنسوها قليلًا ، وليقتسموا رغيف الحزن الذي لا ينتهي ، ظلت الشعلة تتراقص كما لم تتراقص من قبل!
تمر الأيام ، والحصار ما زال قائمًا ، ولا جديد في الأفق.
مثلما قاما "محمود" و "سمية" واختليا ببعضهما ، قاما أيضًا "حسين" و "دلال" ، الذي أنحلهما الشوق ذات ليلة ، احتضنا بعضهما بقوة ، وفاجأها بشيء ، أنه سيتقدم لخطبتها والآن ، فتحت فاها ، وبعينين شاخصتين لم تستطع الرد عليه.

رجعا إلى مجلسها ، طلب "حسين" من الجمع السكوت ، وطلب من أبيها الذي لا يراه خطبتها ، تعجب أول من تعجب أبوه الذي لم يستشره حتى ، وصاح "سمعان" وقتها: "الآن نوقد شعلة أخرى فالكلام سيحلو ، وبالنسبة للأكل ، طظ فيه ، هناكل حب النهاردة".

أشعِلت النار ، رأى كل واحد الآخر ، واعتدلوا في جلستهم ، نظر الأب لابنته سائلًا إياها ، فردّت بالصمت ، فعلم الرد.

علت الزغاريد ، وبدأ الجمع يُصفقون ، ناشدين بعض الأهازيج المتوارثة ، ورقصوا وأولهم "سمعان" الذي كاد أن يطير كرشه في الهواء من فرط حركته.
يضمّ كل زوجٍ زوجته ، متذكرًا كل واحدٍ فرة خِطبته ، حتى "شعبان" الذي طلّق زوجته ، ضمّها إليه ، وردّها إليه مرة أخرى على يد مأذونٍ كان حاضرًا.
سمع الجنود في الخارج تلك الجلبة ، لكن ليس لديهم أمر باقتحام البيوت ، أخبرهم قادتهم أنّ الأهالي طالما في بيوتهم لا يخرجون فلا قلق.

اطمأنّ القادة على الأمر ، وبدأوا في إرجاع جنودهم تدريجيًا إلى وحداتهم العسكرية ، لكن لم يرجع أهل الشارع عن لقائهم كل مساء في بيت أحدهم.

اتفقا "محمود" و "سمية" على الذهاب لطبيب في المدينة المجاورة ؛ ليتخلصا من جنينهما ، بعد أن نصحت صديقة "سمية" لفعل ذلك ، سافروا عبر القطار ، محمود وسمية وصديقتها التي أصرت الذهاب معهما لمساعدتهما في العثور على عنوان عيادة الطبيب ، ظلّا خارج غرفة العمليات يدعون الله أن يسترها معها ، بينما "سمية" تقع تحت مشرط القدر ، فيما يرى الجنين المشرط المتوجه نحوه فانكمش.
لم يفتتح "سمعان" المقهى الذي كان متشوقًا من أجله ، حيث لم يجد حاجة لذلك ، فُكّ الحصار لكن بقيت الأسوار بين البيوت مُهدّمَة ، ليمر من يمر.

****

ليكن ذلك الليلة

يرى نفسه أنه الإبن الضّال للحياة ، مُذ ولادته وهو وحيدٌ بلا أهل ، أو بيتٍ يأويه ، أنحلته الوحدة ، لكن قرر ألا يستسلم لذلك ، الليلةُ رأس السنة الجديدة ، ولن يدع نفسه رهينَ العُزلة في بداية السنة مثل سابقيها.

تكتظّ الشوارع بالناس الذين أحبوا بعض فجأة ، أصحاب المقاهي سعداء للغاية ، فتاة تتعلق بذراع شابٍ ، زوجٌ يمسك بيد زوجته والأخرى تمسك بيد طفلها ، مجموعة من الفتيات يرتدين قُبعات "بابا نويل" فرحين ، بينما هو يربّتُ على كتفه ، يمسك ذراع الوحدة ، يشدّ على يده الأخرى ، لكن لن يحدث ذلك مجددًا هكذا عزم ، سيدس نفسه بين الناس ، يقتحمهم ، يشاكسهم ، وإن وصل الأمر يعاركهم ، قضى ما يكفيه من الوحدة ولن يدع ذلك يطول.

يهنْدم نفسه مستعدًا لما سيحدث ، ينكمش في البداية لكن سرعان ما يتمدد ، الهواء يلفحه فيتمايل لفرط نحافته ، أكبر عدو له الهواء ، محاولة تفاديه في شهر "كانون الثاني" لمعجزةٍ كبرى ، والعيش دون حب في هذا الشهر لمعجزةٍ أكبر !

يتلصصُ من خلف شيش النافذة المُوارب ، تتراءى أمامه فتاة في العشرين من عمرها تروح جيئة وذهابًا ، يحاول رؤية ما تفعله ، إنها ترصُّ أطباق الطعام على المائدة ، يأتي الأب ليجلس غير عابئ بأي مقعد سيشغل ، ومن ورائه زوجته حاملة طفلها الذي كفّ عن صراخه ، ومن خلفها ابنتها ، الفرصة سانحة جدًا لأن يندس بينهم ، دون أن يروه ، هم منشغلون في الطعام وبعيدون عن النافذة ،

الأم غادرت ، ربّما ذهبت لترضع طفلها بعد أن عاود الصراخ ثانية ، باقي الجمع مولين ظهورهم له ، يهمُّ ليدخل وإذ بلفحة هواءٍ تهزّه ، يطلب الأب من ابنته أن تغلق النافذة ، يختبيء خلف ماسورة المياه الخارجية متشبثًا فيها ، تُغلق النافذة فتضيع فرصته الأولى.
لم ييأس قال سيفعلها الليلة ولا راد لقضاء إرادته ، وإن كلفه ذلك حياته ، فما أتعس حياةٍ تقضيها في الوحدة ، وما أطيب لحظة واحدة بين قلوبٍ طيّبة.

أخذ يتسلق العمارة بمهارة ، هدوء المنطقة التي اختارها ساعدته في التخفّي ، المنطقة مظلمة ولا أحد يتجوّل في الشارع ، في طريقه للطابق الثاني يسمع بعض التأوهات ، حسبها في البداية لعجوزٍ يتوجّع ، لكن ما إن وصل للنافذة ودقق نظره ، وجد امرأةً تعلو وتهبط ومن تحتها رجلٌ لم يتبيّن ملامحه ، هذه الفرصة عظيمة للاندساس ، مشهد كهذا سيغيب فيه الاثنان عن الدنيا ، لكن قبل أن يتسرّب للداخل انتهت الجولة بينهما دون سابق إنذار ، أشعلت المرأة المُفترِسَة سيجارةً ، نفثت دخانَها لأعلى في ضيقٍ ، ناولتها لرجلها الذي ظلّ يسعل بشدّة ، بينما يختبيء خلف النافذة متحسرًا ، وتمنى لو كان تلك السيجارة التي دارت بين شفتيهما في أوج الليل ، فحصلت على الدفء ، "صرت أنا أقل من سيجارة" ، هكذا قال في نفسه .
إنتهى المشهد كسابقه بغلق النافذة لبرودة الجو.
كلما تسرّب اليأس لقلبه طرده ، يصعد للطابق الثالث لكن يجد نوافذه مُغلقة ، فصعد للرابع ، سمع أصواتًا متداخلة تصدحُ من أفواهٍ ، وأخرى تُقرع من طبول ، تسلل ببصره من خلف الشيش فرأى أناسًا كُثرًا وفي أيديهم دفوفٌ يقرعونها ،

يرددون كلامًا لا يفهمه ، صمم أن يدخل هذه المرة وليحدث ما يحدث ، حتى وإن قُتل.

يراهم يتشنّجون ، يصيحون ، يرقصون ، يبتسمون ، وأحيانًا يحملقون ، تسلل من النافذة ، استخدم جسده النحيل ليندس وسطهم دون أن يلحظه أحد ، بدأ يحاول تقليدهم فيما يقولونه ، توحّد معهم ، لدرجة أنه استعار من أحدهم دفّه وطرق عليه ، وأثناء ذلك تطلّع فيه أحدهم بشدة ، فكفّ عن حركته ، مؤكد اكتُشف أمره ، قبل أن يحاول شرح موقفه تجاهله الأخير فارتاح.

رآهم يجلسون ، الجمع كبير ، هذه فرصة للاندماج معهم أكثر ، وجد أحدهم يبدو عليه الوقار ، مرتديًا عمّة صوفيّة حمراء ، بدأ يُرتّل دون موسيقى ، صوته طرب عذب يهزّ القلب هزًا ، يحاول أن يتذكر تلك الكلمات ، سمعها قبل ذلك لكن لم يُعرّفه بها أحد من قبل ، فرغ من ترتيله الجميل وإيقاعه العذب بجملة "صدق الله العظيم" ، ثم أغلق كتابًا كان يقرأ منه ، صاح أحد الحضور بصوتٍ عالٍ "الله عليك يا شيخنا.. الله يفتح عليك" ، ثم هبَّ الجميع واقفين كأنْ أصابتهم لعنة ، كانوا يُحركون أيديهم ورؤوسهم يُمنة ويَسرة كمجاذيب ، أحبّ ما يفعلونه ، شاركهم في حركاتهم ، شعر بدوارٍ ، لكنه أكمل دورانه ، أخيرًا وجد أهلًا ولو للحظات ، ولأنّ السعادة هي الابنة البارّة لسوء الحظ فلم تدم طويلًا حين رشَ أحدهم مُعطرًا للجو بكمية كبيرة ، فأسرع للخروج بسبب حساسية شديدة عنده ، متوجهًا ناحية النافذة.

قال في نفسه متحسرًا: "يا لضعفي ، أنا أضعف من زجاجة رخيصة لمعطرٍ جو ، الحياةُ عاهرة كلّما أرادت أن تتوب منعها قوّادوها ، وقوّادها أوجاعها" !

"الإنتحار..الإنتحار" كلمة ظلّت تتردد في أذنه للخلاص من كل ذلك ، لا أحد يسعه لا مائدة طعام ، ولا شفتيّ رجلٍ وامرأة ، ولا تراتيل جماعة ، الانتحار بالنسبة له الآن حياة ، أفلت يده اليُسرى من حول ماسورة المياه ، وبدأ يميل بجزعه ، وقبل أن يترك الثانية سمع كركرة "جوزة" ، تتبع الصوت ، تبيّن أنه يأتي من أعلى ، صعد وصعد حتى وصل أعلى البِناية ، وجد رجلًا يرتدي جلبابًا صوفيًا ، يتمايل مع صوت "أم كلثوم" وهي تشدو ، كلمّا تألق صوتها ، تألق صوت الكركرة ، وتمايلت رأسه انسجامًا ، يجده في حالة غريبة ، يرى ولا يرى ، تماثل أمامه مباشرة ، لم يخف ، أو يفعل شيئًا ، فقط ابتسم له وأكمل تطّربه ، اقترب من "جوزتِه" ، أعجبه منظرها ، بسيطة جدًا حد الجمال ، عُلبة من "البيروسول" مُوصل إليها أنبوبة من الغاب ، وقطع خشب مُتّقدة ، أحسّ بالألفة والونس ، اتّحد مع دخان "الجوزة" ، الذي رفضه في بداية الأمر ، لكن صارا صُحبة ، يربّتون على أيدي بعضهم البعض ، يتصافحون ، يحتضنون ، يضحكون ، يرتعون ، ثم مضوا إلى أعلى فأعلى ، تلاشوا في الهواء فأحسّ وقتها بحريته ، ونسي وقته الذي أمضاه منذ لفظه ذاك الفاهُ الكريه من سيجارته تحتَ البِناية !

****

الخائنة الوفية

أغلق الباب خلفة بقوة ، يكاد وجهه ينفجر من شدّة الغضب ، وجدها مُستلقية على أريكة الباحة تقرأ ، وشعرها مُسْدَل على الوسادة.

وجّه حديثه لها قائلًا في غضبٍ:

- قولي لي ما معنى رسالتك ؟

أغلقت كتابها برفقٍ ، وتظاهرت بالنسيان ، سائلة:

- أي رسالة ؟
- رسالتك الغريبة التي قُلتِ فيها أنكِ ستخونيني إن لم آتٍ ؟
- آه تذكرت
- أخبريني.. ما هذا الجنون ؟
- الجنون هو ما فعلته أنتَ ؟
- وماذا فعلتُ أنا بربك ؟

اعتدلت من نومها وجلست معاتبةً:

- غبت عنّي.. الغياب يا حبيبي قمة الجنون والخطايا
- تعرفين أني مُنهمك في عملي من أجلك ؛ لإتمام زفافنا قريبًا
- ليس عذرًا
- لا تشتتي الموضوع ، أخبريني ما معنى رسالتك ؟
- فات الأوان يا حبيبي
- نعم!
- أنا خُنتك

قبل أن يصرخ فيها أكملت:

- نعم خُنتك لا تُحدّق فيّ هكذا ، سأروي لك ما حدث ليلةَ أمس ، يا لها من ليلةٍ !

قال لها صارخًا: ماذا تقولين ؟

- كف عن الصراخ لأحكي لك

من هول المفاجأة وجد نفسه يجلس على الأريكة المقابلة لها دون إرادة وفي رأسه طنينٍ يؤلمه ، بدأ يستمع لها.

رأيته وأنا أنظّم أصُص الورد في نافذتي ، راقبته على عتبة بيتي ، وهو يُهندم رداءه ، ويُعدّل رابطة عنقه الصوفيّة ، مثلما تفعل أنت بالضبط.

دقّ الباب ، اعتذر مني قائلًا: المطرُ غزيرٌ جدًا ، هل لي من إيواء قصيرٍ لديك ؟ قلت "لا" لكن صوتَ الرعدِ منعه من سماعها ، فاعتبرتها رسالة لإعادة الحسابات ، فوافقت مُرحّبة به... هكذا بدأ الأمر ، ويا لعبقرية البدايات!

- استضفتي غريبًا في بيتك !

تجاهلتْ ثورته وأردفت:

- رأيته يخلع عنه معطفه الجلديّ السميك الذي بكى من قسوة المطر ، ووضع عليه رابطة عنقه أيضًا ، بكل أناقةٍ جلس لكن لم تجلس حناياي مثلما فعل ، كانت هذه الشرارة الأولى ، ويا لصخب الشرارة الأولى !

دون أنْ أسأله ، توجهت مباشرة إلى المطبخ لأعد فنجانين من القهوة ، رجلٌ يرتدي معطفًا ، ويخرج في ليلةٍ شتويّة كهذه ، غير عابئ ببرد "كانون" ، ويلجأ لامرأة لا يعرفها بعد الساعة الثانية عشرة ولهفةٍ ، لابد أنه يعشق القهوة مثلي ، في

الحقيقة صنعتُ فنجانًا واحدًا فقط بدون سكرٍ مثلما اعتدتُ ذلك معك ، بدلالٍ تقدمت نحوه ، وبحنوٍ ناولته فنجانه ، وجلست قِبالته ، أحبُّ لعبة الاحتمالات ، مؤكد أنه قال في نفسه أني غير مُرحبة به ، ووافقت أن أستضيفه على مضضٍ ، لأني لم أرغب في مشاركته شُرب القهوة ، أو ربّما قال في نفسه: ممكن أنها احتستها قبل أنْ آتي ، وربّما تُعاني من "القولون" وحذرها طبيبها منها... يا لأرق الاحتمالات !

مؤكد استبدت به الاحتمالات ؛ لأنه لم ينطق بكلمةٍ ، رميت له طوق النجاة ، فتوجهت له وجلستُ بجواره ، بيننا مسافة قعيدٍ واحد ، أخذت منه فنجانه وشربتُ منه رشفةً ، ثم ناولته ، مثلك قام بتفقّد موضع شفتيّ عليه ؛ ليشرب من ذات الموضع ، كان يشربها على مهلٍ وبرشفةٍ خفيفةٍ ؛ هو طمّاع مثلك يُريد مُساومة شفاهي أكبر فترةٍ مُمكنة.. ويا لغواية الشفتين !

احمرّ وجهه أكثر ، ولم يستطع أن ينبس بكلمة من أثر الصدمات ، وكلما حاول التفوّة بشيء لم تترك الفرصة له ، فأكملت قائلة:

- بدأ الأمر هكذا دون ترتيبٍ ، ودون ترتيبٍ أيضًا وجدته وقف فجأة ، توجه ناحية أصُص الورد التي رتبتها ، وكأنها انتظرت قدومه ، أخذ منها زهرة "الأوركيد" ، ووضعها أعلى أذني اليسرى وقال: هكذا تبدين أجمل ! ..

أخذ يدي اليمنى وأغلق عليها كلتا يديه العريضتين ، قبّلها ألفًا دون قُبْلةٍ واحدةٍ ، انسبتُ من بين يديه كشلالٍ هادرٍ ، كنتُ بين يديه إسفنجةٍ طيّعةٍ ، ملأى بالحب ، كلّما ضغط عليّ نززتُ عطرًا وريحانًا ، يا لذاكرة العطر !

لا يستطع التفكير في شئ ، لا يقدر على تحديد موقفه ، هل يصفعها ويغادر ، هل يستمع لبقية القصة ، هل ينسحب غير عابئ ، وبين تردده أكملت وهي واضعة ساقًا على أخرى:

- فككتُ عنه قميصه ، وفكّ عنّي شال الكشمير ، ثم فستاني القصير الذي غازله كثيرًا ، حين كنتُ قِبالته أضع ساقًا فوق أخرى ، -ذهب زمن كنت فيه قِبالته- انتقلت بين يديه ، كان بُستانيًا ماهرًا ، يعرف جيدًا موعد جنيّ الثمار فيقطفها ، كان ملك التوقيت ، قبل أن تُوشك الثمرة على العطب كان يقطفها ، ويا للذّة الثمرة قُبيل العطب !

كلما قطف من شجرتي ثمرةً قال فيها شِعْرًا ، قال مثلًا: عيناكِ قصيدتان بلا قافية.. عُنقكِ حياة بين السماء والأرض واصلة.. كيف أصبح صدرك ملاذًا للاجئي الحب والبطش والثائر والطاغية !

كان عدّة رجالٍ في وقتٍ واحدٍ ، تارةً أراه يأكلني بغجريّة ، بفظاظةٍ ، وتارةً أجده يأكلني كأرستقراطيّ بالشوكة والسكّين ، كل ذلك على مقربة من مطرٍ الخريف الذي نراه منهمرًا من النافذة ، ويا لسحر مطر الخريف !

بلغ حد الصدمة مبلغه ، وقبل أن يغادر استوقفتْه ناهرة إيّاه وأكملت:

- بينما نحن في أوج الصعود ، أنزلني ، بحث عن أقرب ورقة ، استل قلمه من معطفه ، بدأ كمن مسّه جنيّ يكتب قصيدة... ادخل غرفتي الآن ، ستجدها على المنضدة ، مكتوبةً بحبرٍ أسود أنيق ، مُعطّرة بأريجٍ صاخب ، وعليها حمّالة صدري الأرجوانية اللون التي تُفضلها ، أو كان هو يُفضلها.

لا تنزعج ولا تثُر ، ولاتنعتني بالخائنة ؛ فذلك الزائر الليلي كان طيفًا لعوبًا من أطيافك الكثيرة ، لا تغضب يا حبيبي الوفيّ ، أنا الخائنة لكني قد خُنتك معك !

****

الرصاصةُ التي أحْيَت

يربط أمتعته بإحكام وكذلك قلبه ، خلفه زوجته تفشل في حبس مدامعها ، وفي منع جنينها من لكزها ، كأنه يرفض رحيل أبيه قبل أنْ يخرج إلى الدنيا.
أخذ بعض ثيابه ، وبعض الصور التي تجمعه مع زوجته ، وقليلًا من الطعام ، وكثيرًا من الخيبة.

مُنذ ستة أشهر فقط كان حفل زفافهما ، وسط جمع من الأصدقاء في حي عريق.
الغريب في الأمر أن "جسد" ريتشارد له فضيلة وخطيئة معًا ، حيث بفضل بنيانه القوي أحبته "هيلين" ، حين منع بعض زملائهما الجامعيين من مضايقتها ، وكذلك من بعض جيرانها أثناء مراقبته لها ، والخطيئة أنّ بسبب جسده وقدراته الجيدة جدًا على التصويب ، اختارته قوات الجيش ضمن مجموعة سرايا ستذهب لمعاونة فرق الاحتلال في بلدة إفريقية ؛ لاشتعال عديد من حالات التمرد الشعبي هناك ، حدث ذلك أثناء تأديته لخدمته العسكرية.

بأقدام الخيبة ، وأمتعة الضجر ، غادر "ريتشارد" مدينته الباردة ، وزوجته التي لن يستطيع موقد البيت تدفئتها في ليالي " كانون" القارصة.
لم يعرف "ريتشارد" كم سيمضي في هذه البلدة الإفريقية الجديدة ، ومتى ستنتهي مهمته ، وهذا كان أصعب ما في الأمر.
وصلت إرسالية الجيش إلى الأرض السمراء ، واستقبلتهم الإدارة المركزية هناك ، التي أجّلت إخبارهم بأي تعليمات إلى الغد المقبل ؛ ليرتاحوا من السفر الطويل.

لم يمنع "ريتشارد" من النوم البعوض ، بل التفكير في حالة زوجته ، والطفل الذي سيأتي بعد أشهرٍ قليلة ، وتلك البلدة الجديدة ، الثورة وشيكة الحدوث.
لم ينشغل بال "ريشارد" بأي شيء من هذه التعليمات ، وإنما كان انشغاله بتلك التي تُضاجع الحزن على غير رضى منها في بلدته البعيدة.

توزّعت الجنود على مختلف المناطق لحمايتها ، وتولّى "ريتشارد" مع بعض زملائه في بادئ الأمر حماية بلدة ساحليّة صغيرة قلّما ظهر فيها المتمردون ، أو مثيرو الشغب ، بمجرد نزولهم إليها هرول المواطنون إلى بيوتهم ، وأطلّ الصغار بعيونهم اللامعة من خلف كُوّاتٍ في الجدران لمراقبة ما يحدث ، ومن خلفهم تنهرهم أمهاتهم للعودة لمساكنهم حتى لا يُحطمنّهم الظلم وجنوده.

بدأ "ريتشارد" يتأقلم على وضعه ، وساعده على ذلك عدم حدوث اضطرابات تستدعي التعامل بالقوة مع الأهالي ، إلى أن حدث شئ حيّر أهل البلدة.

ففي لحظة تسلل طفلٌ من بين قبضة أهله ، وخرج إلى الشارع للّعب مع أطفال الحيّ ، كانوا يلعبون "الغميضة" ، مثلما يمارسونها آباؤهم حقيقة وليس لعبًا ، حين يختفون ،عندما تنتهي اللعبة ينتظر أطفالهم عودتهم لكنهم لا يرجعون أبدًا ، لعلّ الصغار تعلموا تلك الحكمة ومارسوا اللعبة تكرارًا ؛ ليعوّدوا أنفسهم - بالغياب القصير- على الغياب الطويل.

حاول الطفلُ الأصغر المتسلل من بيت أمه الاختباء ، ولرغبته في الفوز الأكيد ، هرع إلى الشارع المقابل ، وحين قرر ذلك كادت أن تدهسه إحدى عربات الطريق السريع ، لولا يد جندي من جنود الاحتلال ، كانت يد "ريتشارد".

توقف الزمن وقتها ، فتح كل الأهالي الموجودين أفواههم ببلاهة غير مُصدقين ، ومثلهم الجنود ، حتى "ريتشارد" لم يصدق نفسه ، ومكث ثابتًا للحظات ، قبل أن يبكي الطفل بين ذراعيه جذبته أمه عنوة ؛ ظنًا منها أنه يريد إيذاءه ، ولكن سرعان ما عرفت الأمر ، وصدقته بصعوبة من أهالي المنطقة الذين حكوا لها ما حدث ، صدقت ذلك بشهقات متتابعة ، وعينين شاخصتين.

"حبيبتي "هيلين" :

يا وجه الله على الأرض ، اشتقتك جدًا ، واشتقت لذلك المشاغب في بطنك ، هل لا زال متعبًا كأبيه ، هل يَلكَزُكِ كثيرًا ، هل هو أحمق مثلي ، مرّت ثلاثة أشهر ، أراكِ في وجه القمر ، والموج ، ووجوه الأفارقة السوداء ، وفي ضحكاتهم ، وفي تمردهم أيضًا ، تخيلي أنقذت طفلًا من حادث سيارة ، وظنت أمه المخبولة حين وجدته معي أني أريد قتله ، لم أفهم من لغتها الفرنسيّة سوى سُبّة " ابن الكلب".. جميلتي "هيلين" اصبري على فراقي ، واهتمّي بنفسك وجنينك ، لم أعرف متى سأعود ، لكني قريبًا سأعود.. لقاءً . "

أرسل لها خطابه هذا ، ولم يعتمد على مجرد رسالة نصيّة من هاتفه الجوّال ، أو عبر "الفيس بوك" ، لأن شبكة الإنترنت ضعيفة في منطقته للغاية.

اعتاد "ريتشارد" بعد انتهائه من فترة تأمينه ، أن يأوى إلى جذع نخلةٍ علّها تساقط عليه صبرًا جنيًا ، يتذكر "هيلين" ، أول قُبلة ، أول عناق ، حتى أول

مشاحنة ، يجر ضحكة عالية حين يتذكر كعب حذائها الذي انكسر في حفل زفافهما ، واحمرار خديها وقتها ، ومعاتبتها له قائلة:" إذا لم تكن طويلًا لهذا الحد لمَ ارتديت ذلك الكعب الذي انكسر".. عالج وقتها المشكلة بحكمة ، فرقص بها حاملًا إياها ، وإذا أرادت أن تخطو أية خطوة حملها.

في يومٍ أثناء عادته تلك ، ذهب لقضاء حاجته ، وحين رجع وجد "طعامًا" ، نظر في مختلف الأمكنة ؛ ليرى من وضعه ، لكنه لم يجد أحدًا ، تحيّر في أمره ، همّ ليأكل لكنه راب أن يكون الأكل مسمومًا ، وبين جوعه وشكّه قُضى الأمر وتجرّأ ليأكل ، الطعام كان شهيًا ، تكرّر الأمر عدّة مرات ، فقرر أن يكتشف من وراء ذلك ، ادّعى أنه سيقوم لقضاء حاجةٍ ما ، واختبأ خلف نخلتين متجاورتين ، رآها تمشي على استحياء متسللة في خفة باهرة ، شعرها المموج مُرسل على ظهرها بسلاسة كشلالٍ مُنساب ، لمح بعض القلق في عينينها النجلاوين ، اللتان تشعان ألقًا ، وقبل أن تضع الطعام ظهر من خلف المخبأ ، وأوقفها ، حاولت أن تفرَّ منه لكنه استوقفها بصيحته التي أرعبتها ، وقفت مكانها ، لاحظ ماءها يخرّ من بين ساقيها ، وعيناها تكادان تتركان محجريهما من الفزع ، اقترب منها ، ارتعشت أكثر ، طلب منها بالفرنسيّة التي تعلم بعضًا منها في دراسته ألا تخف ، ثم أجلسها على صخرةٍ ، لم تزل ترتعد ، سألها عن سبب مجيئها بالطعام له ، ومن يُرسلها ، تلعثمت ، ثم استطاعت أن تجيبه ، فهمَ منها أنها أخت ذلك الطفل الذي أنقذه من حادث الطريق ، وأنّ أمها هي التي ترسلها بذلك الطعام ، استفهم منها عن اسم الطعام أجابته بالفرنسية المتقطعة " أكاراجي" ، ثم ردد وراءها "أكاراجي" ، اقترب منها ، ارتعدت أكثر ، قبّل جبينها ، ثم رحلت مذهولة ، وحكت لأمها عمّا حدث.

معشوقتي "هيلين" :
الأيام مُرّة ، لا يطيب لي نومٌ دونك ، كثيرًا ما أشعر بالبرد رغم حرارة الجو هنا ، تخيلي يا "هيلين" أنّ امرأة إفريقية ترسل ابنتها لي لتعطيني طعامًا ، طعامًا شهيًا جدًا ، عرفت كيف يُصنع ، سأعدّه لكِ حين أرجع ، لكن طبقًا طعامك أشهى يا حبيبتي.
يا "هيلين" تصوّري أني حلمت بتلك الفتاة التي تأتيني بالطعام ، تخيلي حلمت بماذا ، سأخبرك في الجواب القادم ، لأنّهم يستدعونني الآن.. أحبّك يا هيلين وأحبّ من تحتوينه"

إجتمع قادة الجيش مع المجنّدين ، لإخطارهم بأنّ هناك حركة جماعية ، يتأهبّ فيها الأهالي للهجوم ، ويجب أخذ الحذر ، والتعامل معهم بمنتهى الحزم والقوة ، وكل الصلاحيات ممكنة في التعامل لإخمادهم.

"حبيبتي" هيلين":
أكتب لكِ علّي أخفف من ضيقتي ، أعلم أنكِ مُتعبة جدًا وأنتِ في آخر أيام حملكِ ، لكن اعتدتكِ المرأة الرقيقة والقوية معًا.
سأخبركِ الأول عن حُلمي ، تخيلي يا حبيبتي أني حلمت بأني أمشّط شعر تلك الفتاة التي جاءتني بالطعام ، وأغني لها أغنية بالفرنسية ، كان شعرها جميلًا طويلًا ، وكانت ضحكتها مع أسنانها ناصعة البياض مذهلة.
يا هيلين أخاف أن أمشّط شعرها اليوم وغدًا أضطر لقتلها ، أخاف أن أنقذ أخاها أمس وأقتله بعد غد ، أخاف أن أقبَل وجبة طعامهم الآن ، وأقدّم لهم وجبة الموت بنفسي..

آسف يا حبيبتي.. دعكِ من هذا كله ، أخبريني كيف حالك الآن ، وحال جنيننا ؟ أحبّك "هيلين" .

من "هيلين" إلى "ريتشارد":
حبيبي قلقتُ عليك جدًا.. لا ذنب لك في أي شئ سيحدث ، أنت مضطر لذلك ، وليس خيارك ، هوّن عليك يا عزيزي ، أنا بخير رغم ابنك المشاكس ، إنه يستعجلك في القدوم بلكزاته لي ، أخبرني الطبيب أنّ موعد ولادتي بعد أسبوعين فقط من الآن ، أحتاجك جدًا ، أنا مرعوبة ، هلا أتيت.. بالله عليك أخبرني متى ستعود ؟.. أحبّك "ريتشارد".

حركة موسعة من الانتفاضة ، اتصل مواطنوا العاصمة بالأقاليم الأخرى ، أعداد غفيرة في الشوارع ، أشعلوا النيران في بعض وحدات جيش الاحتلال ، قرر الأطفال أن يكفّوا عن ممارسة "الغميضة" كلعبة بل كحقيقة ، إما فقْد طويلٌ أو لا فقد من الأساس ، معهم كثير من الحجارة ، والأكبر سنًا بقليل معهم "مولوتوف" ، والكبار لديهم بنادق آلية استطاعوا تهريبها من حدودهم الساحليّة.

تعجّب "ريتشارد" من حال البلدة ، تحولت بسرعة البرق من السكينة إلى ثورة عارمة ، أخذوا الأمر بإطلاق الرصاص فورًا على كل من يعترضهم ، أطفالاً أو نساءً أو شيوخًا ، لا يهم ، المهم إخماد الثورة.

عبّت الشوارع برائحة البارود ، في العاصمة كان الأمر أكثر حدّة ، لكثرة أسلحة وأعداد الثائرين وأعداد قوات الاحتلال أيضًا.

كاد رأس "ريتشارد" أن ينفجر ، الموت يحاصره في كل مكان ، متسائلًا كيف بالأمس يُسرّح شعرًا ، واليوم يُسرح موتًا ؟!
حمل سلاحه المدجج بالرصاص ، إن خالف الأوامر قُتل في الحال ، أطلق الرصاص يمينًا ويسارًا ، لكنه لم يصب أحدًا ، فيما تصرخ "هيلين" صرخة قويّة ، المشاكس يبدو أنه ملَّ وأراد الخروج ، استدعت أمها الطبيب الذي أمر بذهابها للمستشفى للولادة.

غاب "ريتشارد" من حينها ، لم يرَ أحدٌ جثته ، بعد عودة الأمور لسابق عهدها ، وخمود الثورة بفشلها ، انتشرت الأقاويل ، أقسمت المرأة التي أنقذ طفلها من الموت أنها رأته بجلبابٍ "زيتيّ" اللون و "طاقيّة" خضراء فاتحة اللون مزركشة ، ولونه تحوّل إلى اللون الأسود كأنه من أهل البلدة ، فيما قال بعض زملائه أنهم شاهدوه وهو يبتسم ، والرصاص يخترقه دون أن يصيبه بأذى ، ثم اختفى عن بصرهم أثناء الغبار الكثيف.

****

برواز

قبلاتُ العاشقين أكثر دويًّا ، تُضاء السماء بالألعاب النارية ،أهازيجُ العشق وترانيم السلام تعبّ المكان ، الألوان مُعلقة على جدران القلوب ، سامقةٌ راسخة ، كمْ هي ليلةٌ قصيرةٌ جدًا على عاشقٍ ، وطويلة جدًا على قلبٍ خاوٍ ، لايحضِن سوى وجعه حدّ التوحّد .

الأطفالُ يمرحون في المدينة ، يرتعون ، يأكلون قطيعات الشيكولاتة والحلوى ، ويرتدون حلّة الـ"بابا نويل" الحمراء الأنيقة ، يحلمون به بأنه يأتيهم من السماء يوزّع عليهم هداياه الثمينة ثم يرحل كلمح البصر.
في البلدة المقابلة ، الموازية لها في الاتجاه والمضادة لها في السعادة ، يتسابق طفلان للوصول إلى رغيف خبزٍ أُلقى على قارعةِ الطريق كنفاياتٍ من نافذة الدور السابع !
يفوز "محمود" الطفل الأكبر برغيف الخبز المُلقى ، وقبل أن يلوكه يعطى نصفه لصديقه الذي نظر إليه في حسرةٍ وحقد.
بعد أن فرغا من الطعام ، ذهبا إلى قارعة طريقٍ ليبيعا بضاعتهم من أقنعة وطرابيش وصُفّارات للمارّة ، لكن مضى وقتٌ طويل دون أن يبتاع منهم أحد.
ينادون على بضاعتهم القليلة جدًا ، يتوسّلون المارّة ، يقترب "حسن" الطفل الآخر من شابٍ ليحثه على الشراء فينهره الأخير ، وأثناء ذلك تقع قطعة حلوى من طفل صغيرٍ أثناء سيره مع أسرته فيلتقطها "محمود" ، ينفخُ فيها لينظفها من التراب الذي علق بها ، ثم يأكلها بعيدًا عن أنظار "محمود".

يشرد "محمود" فيمن يمرون من حوله ، واحدة تتأبط ذراع شابٍ ، وآخر يحتضن فتاة ، وفتى يأخذ قُبلة خلسة ، يتأملهم متشوقًا لتقليدهم ، ويعتزم أن يفعل ذلك حين يكبر ، لكن ما يهمه الآن هو الحصول على بعض النقود ليرجع لأبيه المريض بدوائه.

نزل رجلٌ وزوجته وأولاده من السيارة مترجلين لأحد المقاهي ، وأثناء طريقهم أخذ طفلهم الأصغر في البكاء مشيرًا بيده على بضاعة الطفلين ، ما إن لمحهم الطفلان حتى شرعوا في اللعب بالصفارات أكثر لتصدر صوتًا أقوى ، تبادلوا البضاعة ورقصوا بها كأنهم حواة ، صرخ الطفل أكثر ، مما أجبر والديه أن يذهبوا للشراء.
بدأ الطفل يمسك كل البضاعة ويعجب بها ، فقرر والده الذي يبدو عليه الثراء ، أن يشتري كل البضاعة من الطفلين ، وبالفعل ابتاعها وسط ذهولهما.
ما إن أخذوا النقود حتى وثبوا من الفرحة ، وتسابقوا في الشارع ، رجع " حسن" إلى بيته ، فيما ذهب "محمود" إلى صيدلية ليبتاع دواء أبيه.
وصل "محمود" إلى بيته ، دخل على أبيه الذي لامه على التأخير ، أعطاه الدواء ، ثم أوى إلى غرفته.

ولج "محمود" غرفته ، رأى أمّه في انتظاره ، احتضنها بشدة ، كانت قد أعدّت له الطعام فأكل ، بدأت تربّت على كتفه ، وتخبره أنه صار رجلاً يُعتمَد عليه ، يبتسم ويهز رأسه فخرًا بذلك ، لكنه يطلب منها رغم أنه صار رجلًا أن تحكي له حكاية فتوافق ، تأخذه في حضنها ممرة أصابعها بين خصلات شعره وهما مستلقيان على السرير ، يخلد إلى النوم بينما تظل هي ساهرة.

يستيقظ "محمود" من نومه في صبيحة اليوم التالي ، يذهب ليستحم ، ومن ثمّ إلى عمله في ورشة للحدادة مع جار له ، وقبل ذلك يطبع قبلة على البرواز ، ويُعلقه على حائط غرفته المشروخ ، البرواز الذي به صورة أمه.

****

الغرق المُنجي

إتفقتُ مع أصدقائي أن نقضي إجازة الصيف في "الإسكندرية"، حزمنا أمتعتنا وسافرنا، لم أكن أعلم أن الغرق سيكون مصيري، وأنا الذي لا أجيد فن العوم.
نام أصدقائي في القطار بينما ظللت مستيقظًا أفكر في صديقة "الفيس بوك" التي دعتني لأقابلها حينما عرفت أني سآتي مدينتها، عكفتُ أفكر في شكلها، حيث لم أرها رغم محادثاتنا العديدة، كيف سيكون لقاؤنا الأول، أعرف أنّ فتيات "الإسكندرية" جريئات وجديرات بالحب والدهشة.
قابلنا أحد سماسرة الشقق التي تمتلأ بهم الشوارع موسم الصيف، وأوصلنا إلى شقة استأجرناها.
هاتفت صديقتي في الهاتف لأخبرها أني وصلت، فوجدتها متلهفة للقائي يوم وصولي، أعجبني تلهفها، بينما لم يعجب أصدقائي أني سأتركهم، لكنى اعتذرت منهم.
وصفتْ لي المكان فوصلت، كانت إحدى "الكافيهات" الفاخرة، أعجبني المكان، جلت فيه ببصري كعادتي حينما أدخل مكانًا جديدًا، قالت لي إنها ستهاتفني حينما تصل .
انتظرتها فعرفت أنّ الانتظار ثمانية أحرف من جهنم، وأنّ مَن ينتظر هو مَن يحترق، تأخرتْ، كلما نويت عتابها أخترع لها مبررات فأسامحها، أخيرًا جاءت وجاء معها كل الجمال، قلت في نفسي:"أهذه التي سأقابلها ! ".
دخلت من باب "الكافيه" الزجاجي الذي صار فجأة موصلًا جيدًا للفتنة، وجدتها فيضانًا من جمالٍ آتٍ عليّ، فيضان لا يقتل بل يُنبت الورد والحب،

كانت ترتدي فستانًا أبيض مُنقّطًا باللون الأسود ، لما اقتربتْ وجدتها واضعة نقطة كُحلٍ أسفل شفتيها ، صافحتها فسرت في قلبي قشعريرة مُحببة.
لم أجرؤ أن أعاتبها على التأخير ؛ لأني نسيت أنها تأخرت من الأساس.
جلسنا في البداية متقابلين ، ثم أحسست أني أريد الاقتراب منها ، فجلست جانبها مُديرًا ظهري لمرتادي "الكافيه" والعاملين وللزمن.
توحدت فيها وبها ، المرة الأولى التي لم أبالِ بمن حولي من الناس ، وأنا الذي أعمل لهم ألف حساب ، حين كنت ألمسها بقصدٍ ودون قصد لم أحسس منها نفورًا ، كأنّ جسدينا مُتعارفان قبل أن نلتقي.
في نهاية اليوم استأذنت مني لترجع لبيتها ، فعادت ، ورغم أني عُدت لم أعد !
هذه المرّة الأولى التي أرى فيها جمالًا يُثير في نفسي الشجن ، الحاجة إلى الحب ولو لدقيقة ثم نفترق ، عندما ابتسمتْ ارتفعتْ درجة عن غيرها من النساء ، وحينما ضحكت ارتفعت أخرى ، كلما همستْ أو التفتتْ ارتفعتْ وارتفعتْ حتى وددتُ أنْ أطلب منها أن تقطف لي نجمةً من السماء كتذكارٍ ، وأسألها إذا توجد سماءٌ ثامنةٌ أم لا !
رجعتُ إلى أصدقائي ، سألوني ماذا فعلت ، لم أجب ، وجدوني ساهمًا ، تركتهم وذهبت لسريري ، تحدثنا في الهاتف لآخر الليل.
في اليوم التالي فكرت أن أهديها شيئًا ، لكني احترتُ ، فأي شيء سيليق بها ، كيف أهادي من هي أصلًا هدية من السماء ، اعتصرت ذهني ، استشرت أصدقائي لكن استبعدت اقتراحاتهم ، لأنها تقليدية ، أخيرًا اهتديتُ لفكرة هدية ربما تعجبها.
قابلتها في نفس مكاننا الأول ، جلسنا نرتشف القهوة ، وفي الأخير اقترحت أن نمشي سويًا على الكورنيش فوافقت.

تمشينا وسط تحديق المارّة فينا ، كأنهم يحسدوني عليها ، جمالها كان أخّاذًا جدًا بشكل ملفت فعذرتهم ، نزلنا إلى الشاطيء ، الساعة التاسعة مساءً ، كانت ليلة مقمرة ، داعبها الهواء ، ومن قريب موج البحر يسمع هديرنا ، وينقل حكايتنا إلى مناطقه النائية ، شعرنا أن الطبيعة مسخرة لخدمتنا بالفعل ، وأن الجمال باسط ذراعيه لنا ، كأنه يقول : " أنا هنا الآن فاغترفوا منّي" .

على حين غرّة أهديتها هديتي ، ففتحتها فكانت قصيدة مني باسمها ، قرأتْها تحت ضوء القمر ، وشعرها يتطاير فرحًا ، أخذت وقتًا طويلًا في القراءة ، تقرأ مقطعًا فتنظر لي ثم تعود ثانية للقراءة ، وأنا أتابعها بشغف ، حين انتهت نظرتْ إليّ طويلًا ، لم تنطق ، ثم دعتني أن أقترب منها أكثر ، فطبعت قبلة على خدي الأيمن ، ثم قالت :" أنا ممنونة لكل شيء في العالم" .

هذا كان غرقي الثاني ، ففرقي الأول كان في "المعمورة" بـ "الإسكندرية" أيضًا ، حين توغّلتُ إلى داخل البحر جدًا ، وأنا لا أجيد السباحة ، انقطعت بي كلُّ سبلِ النجاةِ حينها ، صار كل همّي أن أنطق الشهادتين ، بيْد أنّ الله أرسل لي يدًا أنقذتني ، الغريب أني لم أرَ صاحبَ هذه اليد إلى الآن !

أمّا غرقي الثاني الذي لم أنجُ منه كان معها على شاطيء "المنتزة" حين جلسْنا ، مارسنا رفاهيةَ البوح ووجعه ، أهديتها قصيدةً على ضوء القمر ، فأهدتني قُبلة رفضت أن تموت ، فتحولت إلى شامةٍ وسطَ خديّ الأيمن ، ربّما سيتحول ذلك الخد فيما بعد إلى مزارٍ لحيارى الشوق والدرب ، أو ربّما مقامٍ للدراويش.. العجيب أنّي نجوت من الغرقِ في البحر ، لكن لم أنجُ من الغرق في البرّ ! "

فجأة وجدنا الساعة الثانية صباحًا ولدغة ، تعجبنا كيف مر الوقت بهذه السرعة العجيبة ، عرفتُ أنّ الوقت هو العدو الأول للسعادة ، أوصلتها لمكانها ، ثم عدت لبيتي مخمورًا بسكر نشوتها.

استقبلني أصدقائي هذه المرة ، ورفضوا أن أتركهم ، حثّوني على الحكي ، وجدت صعوبة في ترتيب الكلام ووصف ما حدث ، من أين أبدأ ، طريقتها الأرستقراطية في الكلام ، أو طريقتها الغجرية في الميل بجسدها ، أم عن القبلة ، أم عن الوقت الذي مرّ بسرعة مخيفة.

لمّا وجدني أحد أصدقائي على هذه الحالة طلب مني ألا أحكي شيئًا إلا بعد عودته ، وقال :" هعمل أربع كوبايات شاي ، تلاتة لينا ، وواحدة لصاحبتنا في الله "

بدأت الحكي متلعثمًا ، بكلام غير مرتب ، عندما انتهيت غادرتهم إلى مضجعي ، أستجدي نومًا بخيلًا.

مرت أيام الأجازة بسرعة ، أخبرتها أني سأعود إلى "القاهرة" فانصدمت ، تمنت لو طالت المدة ، لكني أخبرتها أني سأكرر الزيارة بالطبع ، ودعوتها لزيارة "القاهرة" ، بالفعل بعد شهر ، وجدتها تتصل بي قائلة إنها ستأتي للقاهرة في الغد لتناول معي فنجان قهوة ، هكذا طبعها ، إذا عزمت على شيء فهي ماضية إليه بلا محالة ، كأن تأتيني من "الإسكندرية" لـ"القاهرة" لتشرب معي فنجان قهوة وترحل.

حاولت أن أشاكسها وهي معي فقلت لها: " البنت اللي هناك دي جميلة زيك".

ما إن قلت لها ذلك ، حتى قطّبت جبينها ، لا تحدثني طول الطريق إلى محطة القطار ، رغم محاولاتي في استنطاقها ، على رصيف القطار المتجه إلى "الإسكندرية" ودّعتها ، اتصلت بي ليلتها قائلة : " فعلا هي كانت جميلة .. عندك حق" ثم قالت بصوتٍ مليء بالشجن: "اشتقتك". فشعرت أنّ شوقها يبكي معها.

تحدثنا في كل شيء ، عن "الإسكندرية" مثلا ، حين تتحدث عنها يتحول صوتها لصوت عاشق بالفطرة ، لشاعر محب حتى النخاع ، لدرجة أنك تشعر أنها و "الإسكندرية" متشابهان جدًا ، كلاهما بحر ، بمده وجزره ، بجماله وغرقه ، بتناقضاتها ، بشوارعها الأصيلة ، بشارع "فؤاد" أقدم شارع عرفه التاريخ ، حين تتحدث عنها تلمع عيناها درجة العشق ، الذوبان ، التوحد ، ربما لن تجد "الإسكندرية" مخلوقًا يحبها مثلها.

تحدثنا عن الكتب والروايات ، فهو عالمها الأثير ، ليس قراءة من أجل المتعة فقط ، بل من أجل التعايش ، طريقة لتحمل العالم وقبحه ، عالم تصنعه هي أو بالأحرى تشارك في صنعه مع مؤلفي الروايات حتى تواري خيباتها القديمة ، تتعاطف مع أبطال وبطلات الرواية جدًا ، لدرجة أنها تُغيّر من تسريحات شعرها لأن بطلة رواية كانت تسريحتها هكذا ، لم يكتفِ الأمر عند ذلك الحد بل ذات مرة حلقت شعرها تمامًا لأن بطلة رواية قرأتها كانت مريضة بالسرطان !

بها حزن خاص خالص ، ليس حزن فرد بل حزن حضارة ، تفرح حين تحزن لأنها تكتشف إنسانيتها ، حزنها حتى حضاري !

اكتشفتُ أنّ لديها فروقات غريبة في التوقيت ، عرفت ذلك حين قابلتها بعد عامٍ مضى من آخر مقابلة معها ، كان بالإسكندرية أيضًا في مقهى "البن البرازيلي" بمحطة "الشاطبي" ، قابلتني مقابلة باردة ، أتذكر أنها لم تقم حتى من مقعدها ، فقط صافحتني وهي جالسة ، وفتحت موضوعًا كأننا كنا معًا بالأمس ، تقابلنا ثانية في اليوم التالي فوجدتها ماضية إليّ بكل شوق تحتضنني ، وأذرفت دمعةً بعد أن همست في أذني اليسرى: "اشتقتك" .

تُشعرك أنها تخاف أن تحلم لأنها الابنة العاقر للأحلام، لكثرة الفقد تخاف الحلم، وترى الدنيا كعابر سبيل يرفع قبعته ليحينا ويمضي مبتسمًا بمكر.

تعددت اللقاءات بيننا، في كل لقاءٍ شيء جديد تقوله أو تفعله، دومًا متجددة، تعشق الفساتين المُنقّطة، ونادرًا ما ترتدي بنطالًا، حين سألتها عن ذلك، أخبرتني أنها أنثى، والأنثى جديرة بها الفساتين، ثم حدث ما لم يكن في حسباني أبدًا.

كان وسيلة الاتصال بيننا الهاتف المحمول الذي تستخدمه قليلا، هي من النساء رديئة التواصل، لدرجة ممكن أن تهاتفها أسبوعًا كاملًا دون رد، من قلة استخدامه تنسى مكانه، لكن هذه المرة تعمّدت ألا ترد عليّ.
اشتطتُ غضبًا وقلقًا، كلما حدّثني عقله أنها تتجاهلني، وقف قلبي مواجهًا عقلي خالقًا أعذارًا، فربما ليست بخير، هكذا وقعت بين مطرقة عقلي وسندان قلبي دون هوادة.
صرتُ أدخّن التبغ والوهم بشراهة، ذهبت لشاطئ "المنتزة" أول مكان جمعنا علّي أجدها لكن بلا طائل، عدت للقاهرة يائسًا، بعد أسبوعين من رجوعي، اتصلت بها فأجابت، لم أصدق، ولم تترك لي الفرصة لمعاتبتها، أخبرتني بحزمٍ أنّ من الأفضل أن نفترق، صدمتني جملتها، وبعد مُحايلات مني لمقابلتها وافقت، قابلتها في اليوم التالي؛ لأفهم ما حدث.

- إيه اللي أنا سمعته إمبارح ده؟
- سمعت اللي لازم يحصل

- يعني إيه ؟
- الفقد هو قمة التمسّك ، أفقدك عشان أحصل عليك
- إنتى مجنونة.. إنتى مدمنة حزن ؟
- الحزن بيخلينا أكتر إنسانية
- بالعكس ده بيخلينا أكتر وحشية وبرود ، لما يقتل كل حاجة حلوة جوانا
- أنا وحدة بتعيش على وحدتها ، اتخلأت للوحدة ، ومارست الفقد كتير
- إنتي بتحبيني ؟
- انت غبي
- جاوبيني
- أيوة بحبك جدًا كمان ، أنا انسانة غير جديرة بالحب
- إزاي ؟
- بيتهيألي لما ربنا خلقني محطش في قلبي الحب بشكل مناسب.
- بلاش فلسفة
- مش فلسفة دي حقيقة ، الحب قيد
- بيتهيألي ده أكتر قيد بيخلينا أحرار
- انت اللي بتتفلسف أهو
- آسف

- متتأسفش ، العمر قصير مش مستاهل أي أسف ، أنا همشي ، وانت كمان
- نتفارق
- احنا ملتئناش عشان نفترق أصلًا ، احنا في فراق من أول متولدنا
- إزاي هنساكي ؟
- بالفن ، بالشعر ، بالحب
- وإزاي هتنسيني ؟
- بمزيد من الفقد

منذ ذلك الحين لم نلتقِ ، تقطعت كل سُبل الوصال ، كلما عوى ذئبُ الذكرى داخلي ، أطعمته الصبر ، حين لا أجد ما أقدمه إليه ، أذهب إلى "الإسكندرية" ، أسلك دروبها ، أجلس على شواطئها ، مكاننا الأول "المنتزة" علّي أراها من بعيدٍ ، لكن لم يحدث.

"كيف أقاوم الذكرى ؟"

"بمزيد من الفن، من الشعر، من الحب "

تذكرت كلامها الأخير أخذت أكتب ، كلّما أشعلني الماضي ، أطفأته بحطب الكتابة ، حتى أكملت روايتي ، سميتها باسمها كسبيل للتحدى ، تحدي مَن ، لا أعرف ، ربما نفسي.

أجلس الآن بين مدير دار النشر ، ومَن يدير حفل التوقيع ، بدأوا يتناقشون حول عملي ، استهلّ مدير النشر حديثه حول تشجيع الدار للأقلام الشابة ، كيف أنه يقدم لهم العون مرارًا وتكرارًا ، وبمجرد أن انتهى من حديثه بدأ مدير

الحفل كلمته ومناقشته وأسئلته لي، حين أعطت الفرصة للحاضرين أن يسألوا، انشق من بينهم واحد لم يهمه شيئًا في الرواية سوى سؤاله:
- هل الرواية واقعية ؟

لم أجب، بل اكتفيت بملامسة خدّي الأيمن، وشردت عن السؤال وكأني سقطت في جبٍ عميق، لا مارٍ سيجدني، أو دلو سيهبط عليّ من السماء، فقط هناك ذئاب ذكرى جاءتني، ليست بريئة من دمي بالمرة، تحسست خدي ثانية، ثم أتتني رائحة يود بحر "الإسكندرية" من حيث لا أدري.

****

القِسُّ الذي صام

يُحدّق فيه وكأنه سيفترسه ، تكاد نظراته تتطاير شررًا ، يجلس على كرسيه الخشبيّ في مخبزه المُتّخم برسومات السيدة مريم العذراء ، والسيد المسيح بملامحه المتسامحة ، وعشرات الصلبان المعدنية المدلاة من السقف ، والمرسومة على الحائط ، بينما يقف الآخر على بعد أمتارٍ قليلةٍ منه ، يُشكّل حلقة دائرية مع أصدقائه ، يتسامرون ، يضحكون ، يتغامزون ، بينما هو يتميّز من الغيظ .

يقصُّ "أحمد" على أصدقائه أنه في مثل هذه الأيام من العام الماضي مات أحد معارفه مادًا يده في جيب جاره ليسرقه ، وكيف القريّة هلّلت وكبّرت رافعينه على الأعناق ، متمسحين في أسماله الرثّة ، متبرّكين بجسده المِطواع ، ومنادين في أروقة القرية أنه من أهل الجنّة لأنه مات في العشر الأواخر من رمضان ، إذًا سيرحمه الله ويعتقه من النار !

مازال "أبنوب" يضيق ذرعًا من نِكات الأصدقاء وتسامرهم ، فكّر أن يرش دلو ماءٍ ليفرّقهم لكنه تراجع وخشي لو علم صاحب المخبز ذلك فيطرده.

الخلاصُ جاء وحده بغير عكّازين ، فتفرّق الجمع ، وذهبوا إلى مقصدهم بعد أن فزع كل واحدٍ لقرب موعد آذان الفجر ، ماعدا "أحمد" الذي قصد المخبز كي يسد رمقه ليستعد لصوم اليوم التالي من رمضان .

ولج " أحمد " المخبز على عجل مردداً السلام ، جاوبه "أبنوب" في تثاقل ، طلب منه أن يعطيه بعض الخبز ، تظاهر "أبنوب" بأنه لم يسمعه ، فكرر سؤاله أربع مرّات ، طلب "أبنوب" منه أن يذهب لداخل المخبز كي يحضر لنفسه شنطة بلاستيك ليضع فيها خبزه ، متعللًا إصابته بشدٍ عضليّ ، فذهب "أحمد" إلى داخله ، وبحركة خفيفة أغلق "أبنوب" عليه الباب ، ما إن سمع "أحمد" صرير الباب وهو يصفق حتى التفت وراءه ، فوجد أن الباب أغلق عليه ، و "أبنوب" ما زال على كرسيه يتألم ملتصقًا بالباب ، قائلًا له : لقد فعلها الهواء وأغلق الباب عليك .

سيُصدح بآذان الفجر بعد ربع ساعة ، "أحمد" محبوس داخل المخبز الخالي من أي طعام ، كل الأطعمة خارجه ، الباب بلا مزلاجين ، لابد من فتحه بمفتاح ، نادى عليه أن يفتح له ، لكنه صدمه حين أخبره بأن المفتاح ليس معه ، وأخبره بمجرد أن تعود لقدميه العافية سيذهب إلى صاحب المخبز ليأخذ منه المفتاح ، وهو قاطن على بعد شارعين فقط .

ينتظر "أحمد" وهو يشتاط غضبًا ، يتمنى للغائب أن يعود ، خمس دقائق على آذان الفجر ، أسير الجوع والحنق ، وأخيرًا جاء المنتظَر وهو يلهث ومعه المفتاح ، فتح عليه الباب ، انطلق "أحمد" منه إلى الشارع ، آملًا في أن يلحق بعربة الفول في قارعة الشارع ، لكنه شعر أنه لن يلحق ، فمد يده لخبزه ليأكله ، أي شيء يسد رمقه ، لكن سمع آذان الفجر مدويًا في أروقة الفضاء ، ظل ينظر للخبز تارة ، ولأبنوب تارة أخرى ، الذي يكتم ضحكة تريد أن تفرَّ منه .

رجع "أحمد" إلى بيته لاعنًا "أبنوب" الذي جلس واضعًا ساقًا فوق أخرى ، فاردًا منكبيه ، يهزُّ رجليه في استمتاع .

في مساء اليوم التالي ، ذهب "أبنوب" إلى القس "مرقس" في كنيسة "الأجالين" ، مختالًا فخورًا ، يرى أنه صنع عملًا ربانيًا بالأمس ، ليترنّم بترانيم الكنيسة التي يحفظها عن ظهر قلب ، يقبض بيده على الصليب المتدلي من رقبته بقوّة ، مُنشرح الصدر ، منتظرًا مكافأة الرب له على عمله الجليل الذي خدم فيه المسيحية ، ومنع الجريمة الكبرى أن تُرتكب ، فما أعظم من أنه منع مسلمًا من سحوره ، وممكن ألا يقدر على الصوم فيفطر .

وصل الكنيسة متأهبًا لسرد ما حدث أمس للقس ، الذي حتمًا سيشجعه وربما يمنحه هداية الرب وسكينته للأبد ، لكن لم يلقِه بالكنيسة ، فسأل عليه فدلوه على مكانه .
ذهب إليه فوجده ، مرتديًا زيّه الأسود ، وصليبه يتدلى إلى سرّته ، وقف "أبنوب" ساهمًا لا يُصدّق ما يراه ، القس "مرقس" واقفًا بين المسلمين ، يوزّع عليهم طعام إفطارهم بنفسه على موائد الطعام ، بل وانكبَّ بجسده على المقعد يشاركهم الإفطار والضحك ، صُعق من المفاجأة ، فطار إلى الكنيسة معلنًا إسلام القس "مرقس" لعنة الله عليه ، ثم ذهب إلى المخبز الذي يعمل فيه ، متوعدًا ضحية جديدة سيؤخرها عن ميعاد السحور !

****

الموعد الأول

- أرجوكِ لا تبتسمي ، فبستانوا الحي تعبوا من لملمة الورود التي تتساقط من فمك !
- لهم الحق أن يتعبوا

هكذا كانت بداية أول محادثة بينهما على "الفيس بوك" ، أعجبه سرعة بديهتها ، وأعجبها اقتحامه الجميل.

بين مئات الرسائل المُتبادلة ، وبعض الأغاني ، والقصائد التي طلب رأيها فيها ، ولوحات الرسم التي أخذت فيها رأيه ، قررا أن يتقابلا في مقهى اتفقا عليه .

أمام المرآة تقف ، تستعد لموعدها الأول معه ، تُمشط شعرها المُموّج فى زهو وخُيلاء ، بعد أن ارتدت فستانها الأسود الطويل عارى الظهر ، تضع قرطين جميلين من الفتنة ، ثم تضع كحل سطوتها ، تزيّنت رغم أنه أكّد عليها ألا تُبالغ في التزيّن حتى لا تُغار منها أدوات الزينة.

على بعد عشرين كيلو من الشوق ، يختار قميصه الأسود ، ويضع العطر الذي تُفضله هي أن يضعه ، يحضر ورقتين هما قصيدة لها ، سيفاجئها بها أثناء اللقاء القريب.

تنتعل حذاء اللهفة وتمضي إلى المقهى القريب ، لتجده في انتظارها ، يسحب لها المقعد لتجلس عليها ، ويحاول أن يُخبّئ قصيدته في جيبه.

اختار كلًا منهما كلماته بعناية في بادئ الأمر ، ثم انطلقا في الحديث غير المُرتّب بعد ذلك ، قدّم نادل المقهى مشروبين لهما ، بعدما شرب اعتذر منها أنه سيذهب إلى المرحاض فأذنت له .

أخذت تفكر فيما ستقوله له بعد أن يعود إليها ، بينما هو غادر المقهى واضعًا قصيدته في جيب سترته ، مُرسلًا لها رسالة يقول فيها : انتظرتك لماذا لم تأتِ ؟!

****

ستأكل الطيرُ من رأسِه

أجرُّ سيقان الخيبة خلفي ، أهمّ أن ألوّح لمن تبقّى من أهلي بذراعيّ ، لكني تذكرت أني نسيتهما في الحرب ، مثلما نسيتُ صديقي هناك أيضًا ، حيث كان صوتُ المدافعِ يصمُّ الآذان ، قرأت شفتيه وهما تلعنان من زجُّوا به إلى هذه المعركة ، رأيته وهو يحاول الاختباء تحت تلّة من القش ، سمع خشيشَ الأرضِ يتحطّم تحتَ أقدامٍ ثقيلة ، تغطّى بالقش أكثر ، ظهر ذراعُه ، يأتي نحوه ذلك الجندي الأشقر الضخم ، أهرع إليه لأنقذه ، تهبط قذيفةٌ ملعونةٌ جواري ، أغيب عن الوعي ، ولا أعرف مصير صديقي.

عدتُ من الحرب نصف عائد ، فلا أحد يرجع من الحرب مثلما ذهب ، أتلهف لسماع أي خبرٍ عن صديقي المفقود ولو خبر موته ، بينما تُقلّب جارتي الصغيرة - التي مات أهلها- لي الجريدة رأيته ، أخِذ كأسير ، وسِيق إلى مدينة العدو ، عرفت ذلك من خلال عدّة صور التقطت له ، هو ذاك الشاحب الذي يجرُّ قدميه ، تآكل من فرط الخِزْي ، تخيلت أطفاله وهم يلوّحون له من بعيد ، يُحملق فيهم متصنع الابتسامة وفي أذنيه رجع صدى لأمنية ابنته الصغرى "احضر لي قطعة حلوى" ، يصعد الشاحبُ الباهتُ الثلاث درجات من السلّم ، يحاول صديقه دسَّ قطعةً من الأفيون في فمه ؛ لتُخفف عنه الألم ، يلفظها قائلًا: "هكذا النهاية تُصير أشرف"

يركلُ الجنديّ النجِس بقدمه الطاولة ، يتدلّى الرجل مشنوقًا ، تشتاقُ الأرضُ لجثته فاغرة فاها ، تبتسم الرأس لها في تحدٍ.. هكذا كانت نهاية صديقي ، أو كما توقعتها.

أجلس ومازال الغُراب في النافذة يُحدّق فيّ ؛ يطير ليحطُّ على رأسي لينهشه ، لكنه يهرب فزعًا عند ولوج جارتي الصغيرة الغرفة ، أعاتبها على التأخير ، فتتعلل بأنها كانت تبحث عن نقودها المفقودة ، "صغيرة أنتِ ياحبيبتي على الفقد" .. تهرع لعمل القهوة التي تسكب نصفها وهي آتية إليّ ، تُقلّب لي الجرائد العاهرة ؛ لأرى مانشيتات النصر مُحلقة كنسور ، وصورة الحاكم تُظهره كطاووسٍ يزهو قائلًا: " إنتصرنا ، صنعنا مجدًا لم تسبقنا إليه أمّة ، واحمدوا الله أني رضيت بكم شعبًا ، وسنعطي أسرة كل شهيد مبلغًا من المال.. ذاك من فضلي".

أحتسي القهوة بمساعدتها ، القهوة تُذكّرني بصديق الدربِ والحربِ الذي أكلته الأرض ، كنّا نشربها سويّا في المقهي على ناصية شارعنا القديم ، الآن صار مرتعًا للكلاب الضالة وسارقي الجنس ، الغريبُ أنّا ربحنا الحرب ، فكيف الحال إذًا بمن خسروها ، مؤكد أنّ عجوزًا مثلي يجلس على الجهة المُقابلة كجثةٍ هامدةٍ ، تلوك الغربانُ من رأسه دون أحد يدافع عنه !

****

ما قالتهُ العرّافة

"عمرك قصير".. هكذا أخبرتها العرّافة!

لذا كانت تُصادق وتُفارق في وقتٍ قياسيّ ، لا تسمح لعلاقات الحب أن تبدأ ، ما إن تسمع حسيسها تفر كمن رأت شبحًا ، تزور السينما والمسارح والأوبرا ، وترتاد المقاهي ، كل ذلك في يومٍ واحد ؛ ولكي يتسنى لها فعل هذا كانت لا تُكمل مشاهدة الأفلام أو العروض المسرحيّة ، ثم تسأل صديقاتها عن نهاياتها التي تفوتها ، أو ربما تقرأ نهاياتها عبر صفحات الإنترنت.

تحتسي نصف فنجان قهوة ثم بعده رشفتي شاي ، تأكل قطعة حلوى ثم قطعة حاذقة ، تُسافر وتعود في نفس الليلة ، حتى حين تبكي كانت دموعها تُذرَف من عين واحدة !

سهرت مع بعض أصدقائها ذات ليلةٍ ، وفي نهاية السهرة دعاها أحد أصدقائها للذهاب إلى بيته فوافقت ، دلفا إلى بيته ، نزعت عنها معطفها ، فيما ذهب ليحضر كأسي شراب ، حين رجع إليها لم يجدها ، ووجد ورقة مكتوب عليها جملة لم يفهمها "اعذرني.. العمرُ كمارٍ يرفع لك قبعته ثم يمضي" .

تهرول في مشيتها ، وأحيانًا تعدو ، تحسبها دائمًا متأخرة عن موعدها ، أو قاصدة موعد هام جدًا ، تلك الهرولة أضاعت عليها فرصًا عديدة ، مثلًا لو أبطأتْ قليلًا للحقها ذاكَ المُعجب الذي أسرع وراءها ليُهديها باقة وردٍ قبل أن تركبَ الباص ، أو أوقفها مُديرُها في العملِ الذي أراد أن يتأسّف على تحرشه اللفظي بها ، وكانت عرفت منه أنه ينوي ترقيتها في وظيفتها ، قبل أن ترحل عن العمل نهائيًا ، لو لم تُسرع في خروجها من حفل فنّي ، لذهب لها مخرج شهير عارضًا عليها دور البطولة في أحد أفلامه عندما رأى فيها وجه سينمائي جميل ومشرق تحبه

الكاميرات ، لو تلكأت قليلًا -قليلًا فقط- للحقت بها ذات العرّافة ، وصارحتها أنّ نبوءتها محض وهم وافتراء.

تتصور أنها لو أبطأت وشربت الحياة على مهل سوف تسقط على رأسها مزهريّة وردٍ فوق رأسها من إحدى الطوابق التي تمر أسفلها ، تموت فتصدق النبوءة.

رغم معرفتها أن العرّافات يوهمنَ من هو مستعد للوهم ، سيطرت عليها فكرة الموت السريع جدًا ، ربما لكوننا نحب نعيش دور الضحيّة ، أو نحب أن نضيف دراما فوق دراما الحياة الأصلية ، لكن بدأت تلك النبوءة تسيطر عليها أكثر لاسيما بعد مشاهدتها لفيلم يحكي عن القصة الحقيقية لحياة ممثلة الهوليود الشهيرة "ناتالي وود" ووفاتها المثير للجدل ، حيث ماتت غريقة أثناء إحدى نزهاتها ، وكانت قد أخبرتها إحدى العرافات أنها ستموت غريقة ، بالمناسبة هذا هو الفيلم الوحيد الذي أكملته ، فاعتبرته إشارة لصدق نبوءتها.

فيما تشاهد "دلال" عرضًا مسرحيًا لقصة "هاملت" ، يجلس "طارق" على كرسيه الخشبي الهزّاز ، يدخن تبغه بتؤدة ، منصتًا لصوت "أم كلثوم" صادحًا من المذياع ، متلذذًا ومتمايلًا معها ، متقمصًا كلماتها ، فعندما تصدح بمقطع عتاب ، تراه يهز رأسه معاتبًا ، أو يده لائمًا ، يعيد المقاطع التي يحبها عدة مرات مستمتعًا ، متجرعًا قهوته التي تبرد منه دائمًا ، لأنه يرتشفها ببطء ، يرى أنّ إهانة للقهوة أن يشربها بسرعة ، حين انتهت الأغنية أو بالأحرى حين لم يعيدها للمرة السابعة ، شرع يفكر في أمره الذي وصل إليه ، عن مدرسته الخاصة التي فُصِل منها بسبب شكاوي الطلاب من بطئه في شرح المنهج الدراسي ، لدرجة أنه لم ينتهِ من شرح نصف المنهج رغم حلول امتحانات العام الدراسي.

يتلذذ في شرح مادته الأثيرة اللغة العربية ، حين يتناول نصًا شعريًا لأبي فراس الحمداني مثلًا ، تجده يتغزل فيه كأنه محبوبته ، ويمكن أن يطول شرح النص إلى عشر حصص مدرسية.

يفسر قناعته بأن الله خلق الكون من أجل الجمال ، والاستغراق في الجمال فضيلة ، والتلذذ به لا يتأتى أبدًا بالتسرع ، بل بالرشفة العميقة تلو الرشفة ، لذا يمكن أن تجده متأملًا لوحة جميلة لساعة كاملة مثلا ، يشاهد الأفلام التي يحبها مرات ومرات ؛ علّه يكتشف فيها شيء جميل جديد ، يسير بين الناس ببطء ، مُحملقًا في وجوههم ، وفي تفاصيل الطرقات ، حين يقود سيارته تنهال عليه الشتائم من كل حدب وصوب لبطئه الشديد ، يتأخر عن مواعيد أصدقائه ، لذا هجروه ، حين أعجبته زميلة جامعية ، قرر أن يصارحها بعد ثلاث سنوات من إعجابه ، جاءها ، تلعثم في كلامه ، وقبل أن يأتي الفرج استأذنت منه متجهة لزميل آخر تزوجته بعد مرور أسبوعين فقط.

بدأ يعد خساراته جراء بطء إيقاعه الحياتي ، ورغم ذلك لم ينوِ تغيير أسلوبه في الحياة ، لأنه يحب الجمال حد القداسة.

قرر طالما متوقف عن العمل أن يذهب للتنزه ، صادف ذلك احتفالية تعامد الشمس على وجه رمسيس الثاني في معبد أبي سمبل في شهر فبراير ، فقرر حضور هذا الحدث النصف سنوي ، ذاهبًا إلى محطة القطار.

انتظر "طارق" القطار ، غير متأفف من انتظاره ، يشغل وقته بالتأمل في وجوه المارة ، بائعي المناديل والحلويات ، الشحاذين ، رجال الشرطة ، الأطفال ، النساء الجميلات ، شرد في وضعه ، حيث هو البالغ من العمر ثلاثين عامًا وما زال أعزبًا ، يتنهد ببطء ، مشعلًا سيجارة أخذ منها نفسين اثنين فقط ، ورماها عندما أحرقت ما بين إصبعيه.

وصل القطار إلى المحطة ، فضّل "طارق" أن ينتظر بالخارج إلى أن يبدأ القطار في التحرك ، غير متعجل كعادته ، بدأ القطار يتحرك ببطء بالفعل ، لم يقم من مكانه إلا حين وقع شالٌ من الكشمير عن فتاة جرت لتلحلق بالقطار ، فزعت وهي ترى شالها على رصيف المحطة ، غير مستطيعة أن تنزل من القطار لتلتقطه ثانية ، التقطه هو بالنيابة عنها وصعد القطار بسرعة ، شكرته جدًا وبالغت في الشكر ، أخبرته أنها ورثته عن أمها التي أحببتها بشدة ، لم يرد على شكرها لأنه كان منشغلا باستنشاق الأريج الذي فاح من الشال ومن تلك الفتاة التي تقف بالقرب منه كمنحوتة لفتاة أرستقراطية جميلة ، لمّا عاد أدراجه وجدها تعرض عليه أن يجلسا سويًا فلم يجد سبيلا إلا الموافقة .

ركبا آخر قطار في المحطة ، اشتمت من شذاه رائحة التبغ ، فطلبتْ منه سيجارة ، أعطاها بمهل آخر سيجارة في عُلبته ، أشعلها لها بآخر عودِ ثقاب ، جالسان في آخر عربة ، يمارسان رفاهية البوح والحزن معًا ، شعرا بمرارة ، فقدّم لهما مارٌ آخر كوبي شاي مُحلّى في جُعبته ، سمع حديثها عن ليالي الشتاء ووحدته ، قصّ لها آخر ليلةِ شتاءٍ قضاها تحت المطر والضجر ، قرر أن يتخلص من عقدة بطء الإيقاع التي قصمت ظهره كثيرًا ، بينما يحكي ألقتْ برأسها على كتفه كعصفورةٍ ، وضع يده على شعرها ، فبدأتْ أولُ قصّةِ حب ، قالت له اسمي "دلال" ، لم يرد واكتفي بضمّها.

****

النبيّ الذي فقد رسالته

لا أحد يعرف كيف وصل لحالته ، يتكهن بعض أهل القرية الصغيرة أنه أصيب بلوثةٍ ، حين فقد أمه التي عشقها ، ويقول البعض أنه أصيب بخلل عقلي من شدة ذكائه التي شهد عليها أقرانه في الدراسة ، بينما تؤكد فرقة أخرى أنه لم يتحمل فراق محبوبته بعد اعتراض أهلها على زواجهما ، ويكاد يجزم البعض أنّ أثناء سيره ليلًا في حقول القرية ، رأى حمارًا يُحدّثه ، أغمي عليه فاقدًا النطق ، ومن وقتها وهو على هذه الحال ، لا ينطق ولا يعي من حوله ، الغريب أنّ كل فريق يقسمون بأغلظ الأيمان على صدق رواياتهم .

يستيقظ مبكرًا ، يجوب القرية بأكملها مشيًا على قدميه دون مقصد ، ثم يتنقل بين حقول القرية المترامية على أطرافها وقت "العصاري" ، وعندما يلبس الكون ثوب الليل يرتاد مقهى "الصحبة" ، ما إن يجلس حتى يقصد أحد مرتادي المقهى ، مشيرًا له بيده ، فيفهم إثرها أنه يريد نقودًا ، يعطيه من يعطيه ، فيذهب إلى محل بقالة قريب ؛ ليشتري منه شطيرة جبن وسيجارتين ويعود للمقهى ثانية يُرجّع ما تبقّى منه من النقود لأصحابها !

ما إن يجلس على "مصطبة" المقهى يأتي له صبيّها بكوب من الشاي ، يشربه وهو يأكل ويدخن سيجارته في نفس الوقت ، يحملق في كل شئ ، دون أن يرى شيئًا ، أحيانًا يبتسم ، ويقطّب جبينه دون سبب ، اعتاد عليه مرتادو المقهى يوميًا ، كأنه لازمة من لوازم المقهى.

إنقلبت القرية ذاتِ يومٍ رأس على عقب ، بسبب ذلك الـ"شتيوي" ، تغيرت أحوال أناسها ونظرتهم إليه ، دون أن يفهم ما حدث ، وما جعلهم يُبجّلونه بهذه الصورة ، فذات يومٍ خرج شابان إلى الحقول ومعهم بندقياتهم "الرش" لصيد بعض الحمام والعصافير ، رأيا عصفورين على الشجرة ، يتحركان يمنة ويسرة باستمرار ، كأنهما يجسّان نبض القدر ، الشابان يستعدان للضرب ، كل واحدٍ استهدف عصفورًا ، سقط عصفورٌ صريعًا على الأرض بينما الآخر سعيد الحظ طار فزعًا ، دون أن يفهم ما حدث ، لكن ما فهمه جيدًا أنه سيطير وحده دون قرينه ، وحين همّ الشابان لالتقاط العصفور الصريع ، إذ بـ"شتيوي" يفاجئهم بصيحة منه ، فعدوا بعد أن ولوا منه فرارًا وملئوا منه رعبًا ، حمل "شتيوي" العصفور شبه القتيل ، تمتم له بلغة غريبة ، ثم مسّد جناحيه ، وقبّله ، فطار العصفور بغير رجعة ، في هذه الأثناء اختبأ "سعدون" خلف شجرةٍ يراقب ما يحدث ، وما إن رأى ذلك حتى طار إلى أهل القرية واضعًا طرف جلبابه بين فكيّه ، ينبئهم بما رآه.

رغم أن "سعدون" وُلد في هذا العالم ليكذب فقط إلا أن أهل القرية صدّقوا ما رواه لهم ، له قدرة كبيرة على الحكي والتشويق والإقناع ، يتذكرون جيدًا ما رواه لهم عن "حوده السكّري" ، لكن قبل أن يحكي شيئًا ، يجلس متبخترًا ، يطلب كوب شاي ، وحجر "معسّل" ، فتنهال عليه الطلبات التي سيدفعها مرتادو المقهى الذين يسمعونه ، يسكت الجميع ، فيبدأ الحكي بأنه رأى "سكينة" وهي تقطع جسد ابنها بساطورها وهو حي ، رآها من خلف شقٍ في جدار بيتها المبني بالطوب اللبن والطين ، وبعد أن انتهت ، وضعت أجزاءه في حقائب سوداء ، وخرجت من بيتها في الثانية صباحًا ، فزع "سعدون" الذي يهوى التلصص على

الأهالي وهو يرى المنظر ، لكن فضوله الجم ساعده على التماسك ومتابعة ما يحدث ، تخرج "سكينة" في ذلك التوقيت من الليل ومعها جثة ابنها في حقائب.

وضعت في كل "ترعة" جزءً من جثة ابنها ، ومع كل خطوة كان يراقبها "سعدون" من خلف الأشجار والبنايات والعشش ، حتى لمحته وهي تلقي بآخر جزء له ، فعدوت وراءه ، وعدا هو ، حتى سقط "سعدون" أرضًا متعثرًا في جلبابه ، أتته"سكينة" ناظرة إليه برعب ، وظلّت تبحث عن حجرٍ تشج رأسه به ، لم تجد واستطاع "سعدون" أن ينهض ويطير نحو بيته.

يقسم "سعدون" أنه في المكان الذي ألقت فيه"سكينة" رأس ابنها المقطوعة ، كلما مرّ بهذا المكان ، يسمع صوتًا يستغيث به ويقول: "أخرجني يا سعدون".

حين شكّ بعض المتواجدين في كلامه ، قرروا أن يذهبوا للمكان ؛ ليسمعوا ذلك المستغيث بأنفسهم ؛ ليصدقوا ما قاله أو يكذبوه ، بالفعل ذهبوا جميعًا ، وما إن وصلوا لتلك النقطة ارتعد "سعدون" خيفة ، وإذ بصوت مستغيث يناجي في الظلمات: " أخرجني يا سعدون" ، وإذ بهم يفرون كلٌ نحو مقصده.

"سعدون" مستعد أن يدفع أي شئ ليقتنع أهل القرية بكلامه ، وإن وصل الأمر إلى أن يؤّجر رجلًا ويبني له عشة من الخوص وراء "الترعة" ويعطيه نقودًا ليقول مستغيثًا "أخرجني يا "سعدون" وأن يقيم لفترة هناك ليتأكد كل من يشك في

الأمر من كلامه ، بعد أن تأكد الجميع صارت تلك المنطقة مُحرمة على المشي بها.

من حسن حظ "سعدون" أنّ أمره لم يُكتشف إلا بعد موته ، حين رجع ابن "سكينة" حاملًا طفليه وخلفه زوجته التي عاشرها قبل أن يتزوجها ، فرأى أهلهما أن يتركا القرية ويتزوجا خارجها ، ثم يعودان إليها بعد أن ينساهم الناس.

لكن تلك المرة ليس "سعدون" بحاجة إلى أن يضيف خيالًا لهذه الواقعة ، طار وقتها حين رأى "شتيوي" والعصفور إلى أهل القرية وأخبرهم بما رآه بأم عينيه ، فيما استمع له الأهالي مذهولين.

حين رجع "شتيوي" من تنزهه ، بعد قصة العصفور ، وجد أهل القرية مقبلين عليه في لهفة ، منهم من قبّل يده ، ومنه من تمسّح فيه ، ومنهم من ارتمى في حضنه باكيًا ، وفيهم من تطوع بأن يغسل جسده في بيته ويُعطّره ، وبينهم من فصّل له جلبابًا أبيض على مقاسه ، ومنهم من جلب له عمامة خضراء ومسبحة طويلة ، كل ذلك و"شتيوي" مذهولًا مما يحدث ، كأنها رؤية تحتاج إلى تأويل نبي الله "يوسف" ، لكنه لم يُسجن كما سُجن يوسف ، ولم تكن له خِلقة جميلة ساحرة كفيلة بأنْ تُقطّع نِسوة القرية أيديهن إذا مرّ جانبهنّ ، بيد أنه صار "نبيّ" القرية ، كما ادّعي أهلها ، وتهافت عليه الناس لأن يقبل الزواج من بناتهنّ حتي القاصرات منهنّ ، كل هذا وهو غير قادر على استيعاب ما يحدث ، يمشي ذات مرة فيرمي عِمّته أرضًا ، أو يخلع عنه عباءته ، وحين مرة تجرّد من ملابسه تمامًا ، اجتمع أهل القرية وقتها وقالوا :" علّه سيستقبل وحيًا أو هكذا أمره الله أن يفعل". لم يفعل "شتيوي" شيئًا إلا أنه ضحك جدًا وسار إلى كوخه في الحقل.

في ليلة غابرة كان يمشي فيها "شتيوي" مُتبخترًا ، انزلق في بالوعة مياه ، حاول الصعود لكن لم يُسعفه كِرشه المُتّخم ، الكلابُ على مرأى منه ، رأى في أعينهم شررًا ، صاح في الورى لكن دون جدوى ، الكلابُ تقترب أكثر ، يحاول هو أكثر الإفلات من البالوعة ، تجمعت حوله الكلابُ ، ونظرت لبعضها كأنهم يتفقون على من سيبدأ الوليمة ، كانت آخر مرّة تُحملق فيها عينا "شتيوي" بعدما نهشت الكلاب رأسه ، بعد وقتٍ قصير من الجلبة توافد أهل القرية ، أفزعهم المنظر ، لم يستطيعوا أن يُصدقوا ما حدث ، لم يتعرفوا على "شتيوي" سوى من عمامته المهترئة الملقاة جانبه ، قال أحدهم:

- أيُعقل أن تكون هذه مِيتة لـ"نبي" ؟!

ردّ آخر:

- من الأنبياء من قُتِل ومن صُلِب

فيما صاح أحدهم:

- هذه كرامة من كراماته ، لعلّ رأسه تلتئم مع جسده.

ظلّوا واقفين منتظرين أن تلتئم الرأس بجسد "شتيوي" دون جدوى ، ولما يئسوا قال أحدهم: لنتركه هكذا ، من الجائز أن كراماته لن تتم بوجودنا ، لنرحل ، تركوه محشورًا في بالوعة المياه.

في صبيحة اليوم التالي ذهبوا ليروا ما حدث ، فلم يجدوا جثّته ، وجدوا فقط عمامته الخضراء المهترئة ، صاح القوم: الآن حدثت المعجزة !

بعد سنتين من الواقعة أقسم "سعدون" أنه رآه في قرية مجاورة ، يتمسّح فيه الناس ، ونظر إليه مبتسمًا ثم رحل كطيف.

في نهار يومٍ جديد جلس مرتادوا المقهى يدخّنون "الجوزة" والأحاديث الخائبة ، دارت الجوزة دوراتها بينهم دون ملل ، وفجأة دخل عليهم رجلٌ لا يعرفونه ،

بهيئة مزريّة ، وشعر طويلٍ أجعد ، يستند على عصا خشبية ، وعلى رأسه عمامة خضراء ، ما إن جلس حتى التفّ الناس حوله ينظرون إليه بإجلال.

****

حسابُ المَلكيْن

مثيرًا للفضول كان، له عقلٌ لا يفصل بين الحقيقة والخيال، ولا بين الجدّ والدُعابة، إسمه "مسعود" ثلاثيني من أبناء أسيوط، ذو كرشٍ ممتلئ، على سجيّته جدًا لدرجة أنك إذا أخبرته بأنك تناولت كوبًا من الشاي مع ذئبٍ في مقهى على قارعة الطريق صدّقك غير مندهشٍ أو مُتعجّب.

يفتح دُكّان البِقالة خاصة أبيه كل صباح، يُدير المذياع على إذاعة "الشرق الأوسط"، يزوره بعض أصدقائه المُقربين، يستمعون جميعهم إلى المذياع بإهتمام جمّ، فيما يستمعون جميعًا يأخذ أصدقاؤه بعض الحلوى أو ما طالت إليه أيديهم خِلسة، في إحدى مرات زيارتهم له أخبروه أنّ غدًا نهاية العالم، أغلق دكانه بعد أن طردهم، ثم ذهب لمطعمه المفضّل بمفرده، وطلب كيلو "كباب وكفتة؛ لأنه لم يرد أنْ يقابلَ الله وهو جائع، أصِيب وقتها بتخمة كادت أنْ تقضي عليه، نجا منها كما نجا من ضرب أبيه لأنه أخذ نقود وجبته من درج الدكان، عندما قابلهم في يومه التالي ضربهم بغيْظ وهم منهمكمون في الضحك عليه.

في آخر كل ليلة يذهب "مسعود" لمقهاه الأثيرة، يطلب "سحلب" و "جوزة"، تدور الحكايات حول نساء القرية، وبناتها، "سمر" التي نضجت كفاكهة آن لها أن تُقطَف، و "نجلاء" التي لا تشبع من الرجال، معظمها حكايات مُلفّقة، لكن الخيال فرضٌ في مثل هذه الجلسات، و"مسعود" ينصت فاتحًا فاهُ، مستعينًا بمثل هذه الحكايات ليغلب نُعاسه.

أسعد أيامه هي التي تأتي فيه "حبيبة" إلى دكانه لتشتري منه "مِعَسّل" لأبيها، يتلكّأ حين يأتي به، مُدعيًا أنه نسى مكانه، يُحّدق في عينيها اللوزيتين،

وصدرها المتكوّر كبرتقاليتين ، تبتسم حين تفهم نظرته ، تطلب منه أن يُسرع حتى لا يُوبخها أبوها الذي ينتظرها بشوق ، يأتي بالمعسل من درج المكتب الذي رصّه فيه خصيصًا لها ، تأخذه منه طالبة أن يُقيّده على حساب أبيها ، يقول لها "الدكان دكانك" ، بعد أن يأخذ منها لمسة من يدها الصغيرة.

في إحدى جلسات الحكي والمزاح والمزاج ، لفّت النِكاتُ لفًا ، العجيبُ أنه كلما أطلق أحد أصدقائه نكتة مضحكة يهتز أصدقاؤه من الضحك فيما يظل هو ثابت كصخر ، وحين يطلق أحدهم نكتة سخيفة تراه يضحك بصوتٍ عالٍ ، يلتفت له مُرتادو المقهى من إثره ، دارت ساقية سِيَر النساء كالعادة ، جاءت سيرة "حبيبة" ، أقسم الجمع في صوتٍ واحد أنها بنتٌ غانية ، وأنها ضُبطَت مع ابن عمدة القرية في إسطبل خيله ، ولكن كُتم الأمر مخافة من العمدة صاحب الحظوظ والنفوذ ، أقسم أحد الحاضرين أنه نال منها كل النيْل ، وأخذ منها كل الأخذ دون تمنعٍ أو حتى مقاومة ودون أي نقود ، ما إن سمع "مسعود" كلامه انتصب واقفًا ، لَكَم القائلَ لكمة أوقعته أرضًا ثم برك فوقه ببنيانه الضخم ، وقبل أن يلكمه في وجهه ، جاءه أخوه من البيت صارخًا فيه"أبوك مات" ، كأنه لم يسمع شيئًا وواصل ضربه المتكرر لوجه ضحيته حتى أغمى عليه .
لم يذهب لدفن أبيه ، وظلّ يسأل أمّه عن مكانه ، كلما أخبره أخوه بأنه قد مات ، وقع في الأرض كالأطفال ضاحكًا ، ثم يقف مرة واحدة منصرفًا.
حين مات هو بعد عشرين عامًا لم يُصدّق ، لم يسمح لمُغسلي القرية أنْ يُغسّلوه ، بل سار بين الناس عاريًا في الطرقات ، يتأبط قرطاس "الشُكك" تحت ذراعه ، مُتوجهًا لدكانه ، حين وصل بين ذهول المارّة وجد المَلكيْن في دكانه

ينتظرانه ، أخبراهُ أنه مات ويجب عليهم دفنه ليُحاسَب ، قال لهم وهل يُحاسِب ملكٌ ملكًا مثله ، ثم غادرهم وهو يرفل في عُريه بكل أبهةٍ .

****

عربَة فول

مازال يُسطّر أوجاع الوحدة في قِرطاس الزمن ، يرتشفُ كل يومٍ كأسًا من أنينٍ ، ويختتم بقطعة من الأرق.

يقضي "نبيل" عامه الأول في "القاهرة" حيث عمله الجديد كصحافيّ في جريدة خاصة ، حيث نزح من بلدته الصغيرة في محافظة "الشرقية" ، انتقل إليها حتى يكون في سبيله العديد من الفرص ، ولأن الجرائد الإقليمية فقيرة جدًا ، جاء إلى القاهرة حاملًا أحلامه على كتفه الذي صار يئن من انعدام من يُربّتون عليه.

يرى زينة الشوارع تملأه ، المصابيح من كل اتجاه تحدّه ، والناس يتدافعون من كل حدبٍ وصوب ، وعم "سعيد" واقفًا خلف عربة الفول يُحرّك رأسه كعصفورٍ في كل اتجاه وكأنه يريد اتّقاء المخاطر التي ستقع ، يُداهم الوقتَ ؛ حتى يتسنى له تقديم السحور لكل الحضور ، يغترف من قِدْرَة الفول بسرعة هائلة ، معه ثلاثة يساعدونه ، يُنادي على "حسن" ليُحمر "البطاطس" ، الذي بدوره ينادي على "محمد" ليأخذ صينية البطاطس التي جُهزّت ، ومن بعيد يستقبل "أحمد" الوافدين معدًا لهم موائد السحور ، ينقل الطلبات إليهم ، حين مرّة ولأن العربة على ناصية شارع ، اصطدمت سيّارة بـ "أحمد" أثناء عبوره إلى الجهة المقابلة ، الغريب أنه لم يلتفت إلى العربة ، وواصل طريقه إلى "سعيد" ليأخذ طلبات الزبائن كإنسان آليّ !

تبعد العربة عن بيت "نبيل" مسافة قصيرة، يسير إلى هماك متأبطًا ذراع الألم، لأنه لم يستطع تأبّط أذرعٍ أخرى حتى هذه اللحظة، يتلكّأ في مشيته، وما الذي سيجعله يهرع؟

يرتاد "نبيل" تلك العربة كثيرًا مما جعل "أحمد" يحفظ طلبه اليوميّ، ما إن يجلس يأتيه مرحبًا، يسأله: "نفس كل يوم" ، يهز رأسه مؤيدًا له.

يأخذ "نبيل" طعامه أحيانًا ليأكله في البيت، محاولة منه أن يخرج لسانه للوحدة، يقول في نفسه: " أنا هنا وحدي، وسأقتل الوحدة بالوحدة"، لكن جلّ محاولاته تبوء بالفشل، ويزداد وحدة على وحدة.

في المرات التي يجلس فيها عند عم "سعيد" ليأكل، يتنصّت على أحاديث الناس التي تصدح هنا وهناك، يتمنى لو جلس مع أغراب، يحادثهم ويحادثونه، يسألونه ماذا يعمل؟ .. فيرد بفخر أنه صحافي، ووقتها يخرّ الحديث خرًا، يتشاركون أي شيء، ولو يتشاجرون، أي شئ يُزيل تلك الرتابة الجاثمة على صدره كوحش.

يسمع ضحكاتهم، نداءاتهم، يرى تجمع الأصحاب والأسر، أثناء ذلك يستمع إلى فتى خلفه، لا يبذل جهدًا لسماعه لأن صوته عالٍ، ما إن أطلق كلمة "صدمة" حتى خرّ أصدقاؤه ضحكين، وبدأ يقصّ قصته:

في مرة واحنا عيال كنا بنرمي طوب على جارنا، ومعانا "تامر" صدمة، المهم فضلنا نحدف الباب بالطوب، لحد مالراجل فتح الباب وطوبة جت في وشه، كلنا شوفنا المنظر جرينا إلا "تامر" ...

يحاول الحاكي أن يكمل القصة جاهدًا ، يُغالب ضحكاته المتواصلة ، وانتفاخ أوداجه ، مع احمرار وجهه ، ودموعه التي سالت من الضحك فأكمل أخيرًا:
" كلنا جرينا إلا هو ، وقف زي الطوبة بالظبط متحركش ، بعد مكتشفنا إنه مجريش معانا ، وقفنا وناديناه وهو ولا هنا اتخشّب ، اتصدم ، الراجل جه عليه ، وعجنه ضرب ، سألناه بعد مخاصمنا شهرين انت ليه مجرتش ، قالنا كان فيه كلب يا ولاد الكلب ورايا ، وأنا بترعب منهم ، قولت أتضرب من الراجل أهون ، بس بقولكوا ايه ايده كانت مرزبة ، ياريت كنت سيبت الكلب يعضني أحسن"!

ضحك الجميع ومن أمامهم شاركهم "نبيل" الضحك بصوتٍ أقل ، أحسّ وقتها بالحنو ، بالمشاركة حتى ولو عن غير قصد ، جذبه من ضحكاته توبيخ عم "سعيد" لـ "حسن" الذي تأخّر عن جلب "البطاطس" له .

من يجلسون على نفس مائدة "نبيل" لا يتحدثون ، كلهم أغراب عن بعضهم ، وجدها فرصة للحديث ، لكنه لا يعرف بماذا يبدأ ، حين استقر على أن يقول لهم "رمضان كريم يا جماعة" وجدهم ينهضون من مقاعدهم ، كأنهم قاموا على اتفاق ، لعن حظه السئ الذي صادفه مع الوحدة ، لكنه لم يستسلم ، اتصل بصديقه المُقرّب في "الشرقية" وتحدث معه إلى أن أذّن الفجر ، هكذا كان "نبيل" يتحايل على وحدته.
في اليوم التالي قرر أن يُغيّر عربة الفول ، ويذهب إلى أخرى ، علّه يجد مؤانسة أكثر من التي لقاها عند العربة القديمة ، بالفعل ذهب إلى هناك ، جلس فأتي له الساعي ، هذه المرة أخبره عمّا يريده ، انصرف من أمامه بسرعة البرق ليجلب الطلبات ، وجلس "نبيل" على مقعد الانتظار .

جلس بجواره زوج وزوجته وأطفالهما ، خجل نوعًا ما من هذه الجلسة الأسريّة وانكمش في مقعده ، ووصل الأمر إلى أنه فكّر في أنْ يُبدّل مكانه لكن لا مقعد فارغ ، بالطبع الفرصة غير سانحة بالمرة لمشاركتهم الحديث ، فندب حظه العسِر ، اكتفى فقط ببعض الغمزات الخلسة لطفله الصغير للعب معه دون أن يلحظه أحد.

من عربة فول لأخرى ، من طاولةٍ لأخرى ، ولا جدوى لفك أزرار قميص وحدته ، رغم أنه شارك الحديث مع قليلين ، حديثٌ عابر تافه ، لم يؤنسه ، انتهى شهر رمضان ولم يُصاحب "نبيل" سوى أصحاب عربات الفول !

مرّ عامٌ ، وجاء شهر رمضان مجددًا يشقُّ الأشهر الحُرُم ، ومازال "نبيل" يعمل كصحافي ، باقٍ في القاهرة المدينة التي تبتلع الأحلام والأحباب ، الذي تغيّر فقط أنه ابتاع عربة "فول" حتى يُصاحب الجميع !

****

عِزْبة "النُّوْ"

ينهرُ "وحيد الحافي" -الذي بُترَت قدمه- صديقه حين عرض عليه أن يذهب ليتسول ، بحجة أنّ معه العذر في ذلك ، رفض تمامًا وقتها وكاد أن يشجّ رأسه بعكازه الذي يتكئ عليه ، وصاح فيه قائلًا: "عيب ده أنا أحلق شنبي لو ده حصل.. مراتي هي التي تروح تشحت" !

العازب في العزبة هو من تزوج زيجة واحدة فقط ، فرجل مثل "سيد نعامة" على ذمته ثلاث زيجات ، وقبْلهنّ تزوج كثيرًا وطلّق ، يفتخر بفحولته في كل جِلسة سمر ، وكأنّ الحياة انحصرت في هزّة سرير.

"نعامة" يُسرّح زيجاته الثلاث ؛ ليشحذوا في الشوارع ، أكثر زوجة تُدِر له مالًا يضاجعها في ليلتها ، وفي صبيحة اليوم التالي ، ترفل الزوجة المحظوظة بدلال ، وتقصّ عن أهوال ما لقت من "نعامة" ، فيما تغتاظ الأخرتان من سماعها.

"سعاد" هي الزوجة الأولى له ، قضت معه أربع سنوات ، خطبها "نعامة" نهارًا من أبيها ، وفي ليلة اليوم الثاني كانت في سريره بعدما تزوجها.

"سعاد" حين أخبرها "نعامة" بأنه سيتزوج ثانية لم يبدِ عليها أي شعور ، بل عندما عرفت مَن اختارها صارت معها جنبًا إلى جنب في تجهيزها للفرح ، نصحتها نصائح عديدة حول ليلة الدخلة ، ولم تكتفِ بذلك فكانت أول وآخر من رقصت في فرحهما ، رغم حمْلِها ، وهي أيضًا من أطلقت الزغاريد في فضاء

البيت الذي جمع الثلاثة ، حين خرج "نعامة" من غرفته رافعًا رأسه ، ممسكًا بالمنديل الأبيض الملوّث ببقعة كبيرة من الدم الأحمر القاني.

أنجبت "سعاد" من "نعامة" في أربع سنوات ثلاثة أطفال.
أما "سميّة" زوجته الثانية نافرة الجسد ، سليطة اللسان ، الوحيدة من زوجاته الثلاث من استطاعت كبح جماحه في أول ليلة عُرسٍ ، لكن لم يدم ذلك طويلًا ، حين هجرها واتبع هوى "سعاد" زوجته الأولى ، إلى أن أتته ذليلة منكسرة ، لان لها ولكن بعد وقتٍ ليس بالقصير ، هي زوجته من ثلاث سنوات وحصادهما طفلين .
أما زوجته الأخيرة "ولاء" كانت غير الأخرتين ، تمنّت لو أكملت دراستها ؛ لتدخل الجامعة ، كانت ناقمة جدًا على حال نساء منطقتها ، ومنهنّ أمها ، فوقع خبر موافقة أبيها على "نعامة" كالصاعقة.
رحّب أبوها به ، رغم أنّه متزوج اثنتين ، وفي أي وقتٍ قد يُطلّقها ، ليس لأنه رجلًا يؤتَمن على ابنته ، أو سيساندها ضد منايا الزمن ، بل لأن "نعامة" أهداه في ليلة سمر اثنين كيلو بانجو كمهرٍ لابنته.

يجد "نعامة" في عمله الذي لا يعمله مشقة بالغة ، حيث أنه يُرشّح المناطق التي تذهبن إليها زوجاته ، مناطق متباعدة لأنه لا يأمن كيد النساء ، وماذا سيكدْنَ لبعضهنّ.

أحيانًا كان نعامة يغش ، ويخبر الاثنتين أنّ الثالثة جمعت الأكثر وهي أقلهنّ ، يحدث ذلك إذا اشتهى واحدة دون الأخرتين ، غالبًا تكون "سعاد" زوجته

الأولى ، ليس لأنها الأكثر إغواءً بين نسائه الثلاث ، بل لأنها أكثرهن من يُشعرنه بفحولته أثناء المضاجعة.

تعودُنّ إلى ديارهن بعد مشقة ، تذهبن تباعًا إلى الحمام ليستحممن ، فيما يجلس "نعامة" مضجعًا على أرضية البيت يكنز الأموال بعد عدّها ، مستعدًا لمضاجعة الفائزة ليلًا بقطعة من الأفيون وحبّة "تامول".

المعهود في بيت "نعامة" أن أقل واحدة تجلب المال تعدُّ الطعام لكل أفراد البيت ، وسترضع أي طفلٍ يحتاج للرضاعة وإن لم يكن رضيعها ، ترتّب البيت الذي يخلو من الأثاث تقريبًا وتنظفه.

تطوّر الأمر بين الزوجات الثلاث إلى حد المنافسة والتفاخر بالفوز ، يصل الأمر إلى أن تأخذ إحداهن من أمها مبلغًا من المال ؛ لتضيفه على ما ظنت أن ما جمعته قليلٌ حتى لا تشمت فيها الأخرتان.

أثناء مضاجعة "نعامة" والمحظيّة بذلك الشرف ، وصرير السرير العالي ، تفترشان الأخرتان الأرض فوق حصيرتين ؛ وتتسامران .

- الجدع هيشؤها
- ده ابن كلب مبيرحمش أنا مجرباه
- مش انتى لوحدك يا ختى
- لا متخافيش على البت يا أختي دي أحبه وهتعرف تهديه
- ده هلف جامد هتهدي مين !

تبدآن في إستعادة ذكرياتهما الأولى عند مضاجعته لهما في أول ليلة عرس ، وكيف أن "سيد نعامة" لا شئ في قاموسه ممنوع أثناء المضاجعة ، كان يلج ذكره في أي شئ طالما في المرأة ، وكثيرًا ما كان يضاجع زوجاته من الدُبر ، دون أي اعتراض منهنّ ، لا يعلمْنّ أنّ ذلك مُحرّم ، ينتهي السمر بينهما بضحكاتٍ خليعة ، أثناء كل ذلك الأطفال يلعبون في الشارع بحرية دون ثياب.

حين مرّة والنساء الثلاث عائدات إلى بيوتهنّ ، اكتشف "نعامة" وهو يعد ما جمعنه أنّ المحصول من المال متساوٍ ، فدعس جبينه محتارًا في أمره ، وبعد لحظات ضرب صدره عدّة ضرباتٍ متتالية ، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة صافية تنبئ بفخر وخيلاء ، وما إن قال لزوجاته فكرته حتى صحن بصوت واحدٍ ، ضاربين صدورهن بأكفهنّ: "يالهوي" .
حدث ما عزم عليه "نعامة" ، إذ اجتمعوا كلهم ليلتها في غرفة واحدة للمضاجعة ، اجتهدت كل واحدة منهنّ لنيل رضاه وإقصاء الأخرتين ، وجد نفسه ملكًا ، تجري أنهار النشوة من تحته لبنًا وعسلاً.

حين انتهوا ، ذهبوا جميعًا ليستحمّوا ، تولوا تنظيفه في البداية ، واحدة تدعكه بالصابون ، وأخرى تغسل شعره بـ"الشامبو" ، والثالثة تصبّ عليه الماء صبًا ، حين فرغن من تنظيفه ، اشتركن في لف جسده بمنشفة كبيرة ، ثم بدأن في الاستحمام بعد ذلك.
الغريب أنّ في اليوم التالي ، حدثت نفس المصادفة ، فطِن للأمر ، واستنتج أنّ اللعبة الجماعية ليلة أمس أعجبتهن جدًا فأردن تكرارها ، فعاقبهن بهجر مضجعهن جميعًا وذهب لمضاجعة "جوزته" في باحة داره.

لم تكن تلك الحياة التي كانت تحلم بها "سمية" ، فلجأت إلى حيلة لتخلص من "نعامة" ، القاعدة في الزواج أنّ أقل واحدة تجلب مالًا لأسبوع متواصل تُطلّق ، هذا ما صنعته "سميّة" لتتخلص منه ، كانت حين تذهب للتسول ، وتأتي بالمال ، تقابل أمها في غفلة من "نعامة" وتعطيها جُلّ ما جمعت.

من وقتها لم يجلس "نعامة" مع أبيها على المقهى سويًا ، حُرم الأب من هدايا "البانجو" التي يجلبها له "نعامة" ، فبدأ يبحث عن صديق جديد ، يأتيه بما يتمنى ، متحملًا أي مقابل سيطلبه ، حتى لو كانت ابنته ثانية.

بعد شهرين تحقق له ما طلب ، فتقدم له رجل للزواج من ابنته المُطلّقة فوافق على الفور بعد دخانٍ نفثاه معًا في عتمة الليل ، في الليلة التي سيسلمه ابنته لم يجدها في البيت ، هربت ولم يعثر عليها أحد ، بعد عشر سنوات وجدتها إحدى نساء العزبة التي خرجت لتتسول ، رأتها خارجة من الجامعة ماسكة كتبها بين أحضانها كأطفالها ، ذهبت إليها لتعرفها بنفسها فأنكرت نفسها منها ، حين سمع منها الأب ذلك ، احتبست دمعتان في عينيه دون أن ينوي على شيء.
مأساة الزواج في العزبة هي ضرورة أن يكون الزواج من بعضهم فقط ، لا من خارجها ، لا يرضى أحد الزواج بهم إلا نادرًا ، أن يُذكر اسم العزبة تُذكر اللعنات وكأنها وصمة عار ، هذا ما حدث مع "سمر" التي رفضها أهل "مراد" ، رغم أخلاقها وأنها في السنة النهائية في كلية الطب ، لأنها فقط تسكن العزبة ، حين سمعت أمه الخبر ، ضربت على صدرها ضربة قوية وقالت فزعة :" يالهوي من العزبة!".. هذا ما جعل أبوها يبيع بيته هناك ، ويستأجر آخرًا خارجها.

صبيحة يوم جديد ينفلت من رحم الكون ، لتشرق العزبة بنوره ، النسوة تستعد للذهاب إلى عملهن ، بعضهنّ يعملن كمعلمات في المدارس ، وأخريات عاملات في المنازل ، وكثيرات منهن يذهبن للسوق لبيع الخضروات والفاكهة ، والغالبية يذهبن للشحاذة ، ومنهنّ "سعاد" التي تصادمت عن غير قصد بجسد "رمضان الأعمى" ، فصاحت فيه دون أن تراه : "مش تفتح يا اعمى". فرد عليها مازحًا:" انا برضه الاعمى يا سعاد". ما إن اكتشفت أنه "رمضان" حتى ربتت على كتفه معتذرة له حيث لم تتعرف عليه باديء الأمر ، فرد عليها ملطفًا الموقف:" أنا اللي مفروض أحاسب.. لما شوفت ضي القمر حيعمي عيني ، كان مفروض أعرف إن القمر جاي عليا وأحاسب" . ضحكت "سعاد" لمغازلته ثم قالت بعد ضحكة خليعة: "يخيبك يادي الراجل" ثم مضت.

ارتاد "رمضان الأعمى" مقهى قريب من بيته ، وفي يده فطيرتان أهداها له عم "صبحي" صاحب محل بقالة كعادته كل يوم ، يجلس على المقهى كل صباح واضعًا ساقًا على ساق ، ما إن يراه "جمال" صبي المقهى ، حتى يجلب له كوب شاي ثقيل ، يشكره "رمضان" ويبدأ في تناول الطعام ، وارتشاف الشاي مستعدًا لجولته الصباحية ، ينهض من على كرسيه ، لا يحاسب على طلباته ، تقريبًا لا أحد يأخذ من "رمضان" نقودًا أبدًا أو بالأحرى لا يعطيهم هو شيئًا ، يُعدّل هندامه ، ونظّارته السوداء ، وعصاته ، يمضي إلى السوق حيث متعته الأبدية ، يسأل بائعة الطماطم لمَ تجلب "الطماطم" خضراء اللون دون أن تستوي ؟ .. ثم ينصرف من عندها ضاحكًا ، يشتمُّ رائحة "السمك" فيلقي السلام على "حمودة" السمّاك الذي بدوره يجيب عليه ، مصممًا أن يأخذ منه "سمكة" مقابل دعوتين منه ، فيوافق "رمضان" داعيًا له.

الجميع في السوق يعرف السبب الحقيقي الذي يأتي لأجله "رمضان" ، فبجانب أنه يجئ لقضاء حاجياته التي لا يدفع ثمنها ، يجئ أيضًا ليتحسس مؤخرة هذه بيده ، ونهد تلك بيده الأخرى ، متخذًا من إعاقته حجة لذلك.

النساء القديمات في السوق عرفن بأمره ، وتعاركت إحداهنّ معه ذات مرّة ، رغم ذلك لم يكف عن تحرشه بهن ، يرى أن ذلك حقًا أصيلًا له ، لا حق لأحد أن يعترض ، ألم يكفِه أن اعترض عليه الزمن وأصابه بالعمى!

هكذا يعتقد ، وحين يعظه أحد شيوخ جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالإقلاع عن ذلك ، يصيح فيهم قائلًا : ليس على الأعمى حرج. هكذا يُفسر "رمضان الأعمى" الأمر.

بعد رحلته النهارية على المقهى والسوق ، يذهب لبيته الذي ورثه عن أبيه لينام ، وبعد استيقاظه يأكل ما أنعم عليه بائعو السوق من طعام ، ثم يذهب للحقل ويدندن بعض أغنيات "سيد مكاوي" مختلطة ببعض آيات القرءان الكريم !
ثم يذهب للمقهى ، ليجتمع حوله أهالي العزبة ومعظمهم من الصغار ؛ ليقص عليهم ما يراه ولا يستطيعون هم رؤيته.

في العزبة" رجالٌ ذو مكانة وموضع احترام وتقدير من كل أهل البلدة ، أينما حلّوا يُرحّب بهم ، وخاصة في المنازعات وجلسات "العرف" التي تفصل للحكم بين المتشاحنين والمتضررين ، لهم كلمتهم الفاصلة.

وأكثرهم تقديرًا وحنكة في جلسات "العرُف" هو الحاج "أحمد الأتربي"، يشتهر بحنكته وكياسته، مُهابًا في مشيته، وقورًا في حديثه، ومما زاد من وقاره خصلات شعره الأبيض التي ضيّقت الخناق على الأسود منه.

من أشهر وأسهل وأسرع جلساته حين حكّم بين زوجٍ وزوجته المتشاحنين، الجلسة انعقدت بحضور والد الزوجة وأخيها، ووالد الزوج وعمّه، الغريب في الأمر أنه لم يستمع إلى أسباب المشاحنات، بل طلب طلبًا غريبًا، صمت كل من في الجلسة كأن على رؤوسهم الطير، فاغرين فيهم، مذهولين، إذ قال الحاج "أحمد" :

- يلا أنا عاوزك يا "منى" تئلعي هدومك أدامنا

ما إن سمعت"منى" ذلك حتى ارتمت في أحضان زوجها مستنجدة به، فضحك الحاج "أحمد" بصوتٍ خافتٍ به دهاء قائلًا:

- لما طلبت منك تئلعي، جوزك أول واحد جريتي عليه وارتميتي في حضنه، مع إن أبوكي وأخوكي كانوا موجودين، ارجعي لجوزك يلا يا بت يا هبلة بلاش عبط .

هكذا كان حكمه نافذًا حتى لو أنه ضد المنطق، لأن أهل العزبة لا يحكمون لمنطق أثناء وجوده، هم يجلّون الغريب، فما الحال بواحد منهم كيس فطن مثل الحاج " أحمد" .

لكن وقاره وفطنته لم يمنعا قتله ، حيث زاحم شعره الأبيض والأسود هذه المرة اللون الأحمر الذي تدفق من رأسه ، حين وجد رجال الشرطة عدّة ضربات في رأسه ، أرجعها الطب الشرعيّ إلى أنها ضربات بجسم حديدي بغرض السرقة ، لم يعثر رجال الشرطة على القاتل وقيدت القضية ضد مجهول.
عمّ الحزن على الأهالي بسبب مقتله ، لدرجة أن بعض الرجال لم يُخرجن زوجاتهنّ للتسول ثلاثة أيام متتالية ، ولم يمسسهنّ ، فقط اكتفوا بالجلوس على المقهى ، ينفثون دخان سجائر المحشيّة بالبانجو ، ومع كل نفثة في الهواء يسبّون الدين وفي الوقت ذاته يدعون للحاج "أحمد" بالرحمة !

لا يمكن أن يكون أحد في ضائقة دون أن يجد من يقف جانبه ، إذا اختفى أحد من الأطفال ، تجمع كل الأهالي على قلب رجل واحدٍ بسرعة البرق ، وبحثوا عنهم بدرجاتهم النارية و"التكاتك" وعلى أرجلهم ، هذا ما حدث بالضبط مع "سعيد حسبو" حين اختفى ابنه قبيل الغروب ، تجمع كل أفراد المنطقة ، وزّعوا أنفسهم في كل مكان ، تواصلوا بهواتفهم ، بعد العشاء وجده "عمرو السيد" جالسًا قرب تُرعة على طرف البلدة يلعب في الطين ، جذبه بيده الوحيدة التي يمتلكها ، أخبر بعض الباحثين أنه وجده وآتٍ به ، حين جاء إلى أبيه ، أعطاه له ، وقبل أن يشكره انصرف ، لأن يده الثانية طارت في خناقة مشهودة معه منذ سنتين!

لم يكونا هم طرفا المشاحنة فقط ، بل كان معهم "حلمي جمعة" ، خرج دون أي جرح ، رجل أربعيني ، لا يعرف كيف يتوضأ حتى ، لم يعلمه أحد أو يشجعه على الصلاة فمن أين سيتعلمها ، كان لديه عربة "كارّو" يبتاع "الخردة" في

القرى المجاورة ، وتذهب زوجاته الأربع للتسول أيضًا ، وأثناء سعيه ليبتاع خردته ، وجد إحدى زوجاته بجانب رجلٍ على مقهى شعبي ، وعلامات الانسجام واضحة عليهما ، بدون أي كلام جذبها من شعرها ، وبقطعة من خردة ضرب هذا الرجل الغريب على رأسه فشجها ثم انصرف ، لم يستطع أحد اعتراضه بسبب بنيانه الضخم وغضبه ، تكومت زوجته وراءه بين قطيعات الخردة تبكي ، وعقلها يذهب ويجئ ، ماذا سيفعل بها ، فكرت في القفز من العربة لكن تراجعت بسبب خوفها ، خاصة أنّ الجواد الذي يجرّ العربة يعدو بسرعة ، قالت إنه سيقتلها ، شهقت في سرّها ، وانتظرت ما سيحدث.

وصلا البيت ، ربط "حلمي" جواده في حلقة حديدية جوار بيته ، ولملم خردته المتبقيّة في جوال ، ارتمى على المرتبة التي يضعها أرضًا ليستريح متوسدًا ذراعه ، متجاهلًا زوجته التي لا زالت نائمة فوق العربة بالخارج.

تمنت بعد تجاهله لو ضربها ذلك اليوم ، أو حتى شجّ رأسها لكان أهون من كل هذا التجاهل ، الغريب أنه لم يطلقها ، لم تجد تفسيرًا لذلك سوى أنها أمهر زوجاته في التسول وأكثرهنّ جلبًا للمال.

"حلمي" من كثرة أطفاله الذين أنجبهم والذين تعدوا العشرين ، كان لا يحفظ أسماءهم ولا إلى أي أمٍ ينتمون يكفيه معرفة أنهم أبناءه فحسب ، وسبب له ذلك مشكلة عويصة حين زُفّ له خبر غرق ابنه بالإسكندرية ، لم يدرِ وقتها أي زوجة سيخبرها بالأمر ، وقف أمام البيت ، صاح في زوجاته أن تحضرن ، ولما اقتربنّ منه ، صاح ابني "حسن" مات ، ما إن فرغ من كلمته حتى صحنّ زوجاته وشققنّ جيوبهنّ ، وكأنهنّ كلهنّ أم له ، ظل الأمر هكذا حتى فقدت إحداهنّ وعيها فسقطت على الأرض ، كانت أم "حسن" .

بعد أن أحضروا جثمانه ، واكتملت مراسم الدفن ، تناوبت الأهالي على دار "حلمي" تُعزّيه على فقيده ، افترشوا أمام بيته أرضًا ، وعلى المصاطب ، من أمامهم صوت القرآن الصادح من المذياع ، ومن خلفهم النساء تولولنّ بحرقة ، كلما صرخت واحدة نافستها الأخرى بصوتٍ أعلى ، وإلا فإنهنّ سيعتبرن مقصرات في الواجب.

ما إن سمع "رمضان الأعمى" الخبر حزن ، وطلب من ابن أخيه أن يسوقه بسرعة لبيت "حلمي" ، وصل إلى هناك سريعًا ، بدون أي مقدمات وقبل أن يُعزي "حلمي" جلس على المصطبة مُربعًا ، طلب من الحاضرين إطفاء المذياع ، وبدأ في تلاوة القرآن.

لم يكن صوت "رمضان" بالصوت المميز ، لكن يشوبه بعض حلاوة ، لم يفوّت مناسبة عزاء إلا وحضرها ، يفرض نفسه على المأتم ، ولا يجرؤ أحد على اعتراضه ، يرى أن ذلك رسالة وجوده في الدنيا.
رغم أن "رمضان" كان يأتي بآية من المشرق ، وأخرى من المغرب إلا أنه أشجى المُعزّين بصوته ، حتى صاح أحدهم : " الله عليك يا شيخ "رمضان" يا عِتره.

بجانب "رمضان" يجلس "سيد نعامة" وبجواره "سعيد حسبو" بعد تصالحهما بفرمان من الحاج "أحمد" قبل مقتله بشهرين ، ومعهم "وحيد الحافي" يجاور صديقه العكّاز ، وجمعٌ من أهل العزبة.

شعر "حلمي" بالإحراج أمام كل الذين توافدوا عليه لتقديم واجب العزاء، فصمم أن يُضيّفهم، فأرسل ابنه "سمير" إلى بعض المعارف؛ ليحضر ما يتيسّر له من "البانجو" و "الحشيش" إكرامًا لضيوفه المُعزّين!

ذهب بنفسه إلى "رمضان" ودسّ في جيبه العلوي قطعة حشيش فابتسم "رمضان" ثم تذكر أين هو فقطّب جبينه.

بعد الانتهاء من العزاء ذهب معظم الحضور إلى المقهى، وبعضهم ذهب لبيوتهم ليرتاحوا من وعثاء الدفن والعزاء.

أصرّ "سعيد حسبو" أن يأخذ "حلمي" معه إلى المقهى؛ ليُفرّج عن نفسه ألم النازلة، رضخ لرغبته بعد مشقة وإلحاح.

يبدأ "سعيد حسبو" في كركرة "الجوزة" المملوءة بقطيعات الحشيش، ثم يناولها لـ"حلمي جمعة" الذي يأخذها ويشربها وكأنه ينتقم، بدورها تدور إلى "سيد نعامة" الذي يأخذها بشوق، ومنه إلى "وحيد الحافي"، ثم إلى "رمضان الأعمى" الذي تناولها وهو يهزّ رأسه يمنة ويسرة فرحًا بها كأنها عشيقته.

وسط كركرة "الجوزة"، والدخان المُتصاعد بكثافة، وثرثرة مرتادي المقهى، ضحك "سيد نعامة" فجأة، ثم قصّ عليهم كيف كان "رمضان الأعمى" يُمسك نهود النساء في الشارع ببراعة ويقول: والله تلائي ابن الهرمة ده مفتح وبيستعبط علينا. ثم تنتقل عدوى الضحك إلى الجميع، حتى "رمضان" ضحك، ليس على كلام "نعامة" بل لأن من النساء اللاتي تحسس صدورهن هي زوجته "سعاد"، حتى "حلمي" الذي تناسى موت ابنه انفجر في الضحك حين تذّكر وقعة لرمضان أيضًا، حين داهمت الشرطة المقهى، كان "رمضان" وقتها يُدخن سيجارة "حشيش" بسلطنة، ويدندن بعض الذي حفظ من أي شئ، أغنيات ،موسيقا،

أو حتى آيات قرآنية ، لكن حين اكتشف "رمضان" بحاسته الفنيّة تلك المداهمة ، تسلل خارج المقهى ، لكن خاف من حركته البطيئة أن يُقبض عليه ، فاعتلى عربة كانت مركونة خارج المقهى ، وحين صعدها أحسّ بوجود شخص ، ثم سمعه يقول بصيغة آمرة: "قل له اطلع ياسطى".. لم يكن الرجل الذي أمره سوى "أمين شرطة" ، وتلك العربة هي عربة الشرطة فسِيق إلى القسم ، وضُرب ضربًا مبرحًا كاد أن يرجع له بصره .

لم يمسك أحد نفسه من الضحك ، ومنهم "رمضان" الذي تحسس "قفاه" ، وأرسل رذاذ فمه في وجوههم ، كعادته حين يضحك.

دارت "الجوزة" دورات كثيرة بينهم ، كدورة الحديث ، ومن بعيد تجتمع النسوة في بيت "حلمي" ومنهنّ زوجات "نعامة" يثرثرنَ بالنميمة.

نهض مرتادو المقهى ؛ لينصرفوا لبيوتهم حين أوشكت شمس العزبة على النهوض هي أيضًا ، بعد أن أيقظتها حكاوي أهاليها على المقهى وفي البيوت ، مستعدين للحداد ثلاثة أيام ، وبعدها تذهب النسوة للشحاذة ، وبعض الرجال لبيع الخردة ، والباقي منهم في البيت منتظر الغلّة ، لا جديد يلوّح في الأفق ، كأنه عهدٌ أقامه أهالى العزبة مع الأيام.
استيقظ بعض أهل العزبة في اليوم التالي على جلبة ، لمّا تحققوا من الأمر وجدوها أعمال بناء ، سألوا العمال ماذا سيبنون ، أجابوا مسجدًا. فذهلوا
مسجدٌ يُبنى في عزبةٍ كعزبة "النو" لهو أمر جلل ، كيف يُبنى مسجد لأناس معظمهم لا يعرفون كيف يُصلّون ، أو حتى كيف يتوضأون ، لكن جماعة الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر كان لها رأيًا مختلفًا ، جمعوا تبرعات من القرية والقرى المجاورة ، وبدأوا في أعمال البناء ، غير مكترثين بردود أفعال الأهالي ، ولا عدد المصلين.

تناوب على الصلاة في المسجد أعداد قليلة جدًا من العزبة ، كانوا يُشكّلون صفًّا واحدًا ، وفي صلاة "الجمعة" صفّين.

في ليلة نفد فيها الحشيش والصهللة بسرعة ، اقترح "رمضان" الأعمى على صحبته اقتراحًا أذهلهم ، بل وأفاقهم من غيبتهم ، ساد الصمت ، ثم ضحكوا بشدة قائلين له :" يا بن الكلب.. انت عاوزنا نخش النار"

كانت الساعة وقتها العاشرة مساءً ، رغم تعجبهم ، ساروا خلفه ، كان "رمضان" الأعمى يقودهم ، في العتمة يتفوق الأعمى على المبصرين ، "رمضان" أقل من شربوا الحشيش ليلتها ، ثم إنه ماهرٌ جدًا في حفظ أماكن بالوعات الصرف الصحي ، والشوارع وأسماؤها ، وأسماء ساكنيها ، والخرابات التي يمارس فيها الشباب الجنس ، وأسماءهم.

سار "رمضان" وخلفه صحبته ، بعد عشر دقائق وصلوا إلى مقصدهم ، نادى فيهم :" ادخلوا " ..

فدخلوا...

صاح فيهم "حلمي" بعد أن رآهم لم يخلعوا عنهم أحذيتهم قبل دخولهم المسجد ، فوضعوها على الأرفف ، وذهبوا إلى مكان الوضوء.

وقفوا ينظرون إلى بعضهم ، لا يعرفون الوضوء ، ينتظرون أية انفراجة من السماء ، وإذ بطفلٍ آتيًا من باب المسجد ، شقّ جمعهم ، وشمّر ذراعيه ، وقال بسم الله.. الله أكبر ، فأخذ الجمع أماكنهم ، وقلدوا حركاته ، يغسل يديه

يغسلون ، يمسح شعره يمسحون ، انتهوا من الوضوء بعدما انتهى ، وجاء وقت الصلاة.

طلبوا من الطفل أن يساعدهم ، فوقف بهم الطفل إمامًا ، قال الله أكبر ، وبدأ قراءة فاتحة الكتاب ، بدأوا في التفوّه بأي كلمة يلحقونها من سورة الفاتحة ، وحين يسكت الطفل الإمام لا يعرفون ماذا يقولون ، فيصمتوا ، أو يتفوهون بأي شيء ، كـ "الله أكبر" و "الحمد لله".

انتهوا من صلاة العشاء ، خرج الطفل ومن خلفه المصلون ، صاح "رمضان" قائلًا:

- مش ده صوت الواد "عمر" ابن "حلمي"

ما إن قالها حتى فركوا أعينهم ، فحصوه ، وجدوه بالفعل ابنه ، لم يتبيّنه أبوه لضعف بصره ، لكن عرفه "رمضان" لفقد بصره ، واعتماده على سمعه ليرى!

احتضن حلمي طفله بشدة -الذي لو لم ينادي "رمضان" باسمه لما عرف اسمه- متسائلًا:

- مين علمك الصلاة يا بن الكلب انت

أجاب "عمرو" وهو يحاول الإفلات من حضنه ، آخذ نفسه :

- من أستاذ "علي" ، أستاذ جديد في مدرستنا ، وبدأ يعلمنا يعني إيه نصلي ، ونصوم كمان
- نصوم ؟
- أيوة يابا ، وقالنا كمان كام يوم هياخدنا معاه في سبيل الله
- إيه .. سبيل الله ؟

- آه.. مش عارف فين سبيل الله ده بس هنروح معاه

ساروا معًا متجهين لبيوتهم ، "حلمي" متكئًا على ابنه ، يربّت على كتفه فخورًا به ، فيما يتأبط "وحيد الحافي" ذراع "رمضان الأعمى" ، ويسير "سيد نعامة" و "سعيد حسبو" جنبًا إلى جنب.

في صباح اليوم التالي ، أخذ كل واحد من الصحبة يروي على مسامع زوجته أنه صلّى في الجامع الجديد ، ما إن تسمع كل واحدة منهن الخبر ، تحملق في زوجها بذهولٍ ، لا تنطق .

****

صعلكة ورقة

بعد طول تفكيرٍ وتردد أطلق سراح قراره الذي حبسه شهورًا طويلة ، يضم بين يديه كتابًا قديمًا يعود إلى ثلاثينيات القرن العشرين ، يحتفظ الكتاب بتماسكه رغم قِدمه ، يُصقِل الورق الأصفر مظهره.

يذهب إلى مدرسته الثانوية القريبة من بيته مترجلًا مدندنًا مقاطع يحفظها من أغنية "فاتت جمبنا" ، مقاطع ترد على خاطره دون ترتيب.

حضر طلاب المدرسة الطابور الصباحي ، فيما حُذّر أكثر من مرة بالعقاب إذا لم يقم بتمارين الصباح مثل بقية زملائه ، يعود إلى انتباهه بعد اعتذاره ثم سرعان ما يشرد ثانية في قراره ، وما ستؤول إليه الأمور إذا اكتُشف أمره ، بعدما حضر طابور الصباح ، توزّع الطلاب والطالبات على فصولهم.

كانا متواطئين بغير اتفاق ، يجلسان قرب بعضهما ، يجلس "تيّم" على حرف التختة ، وكذلك "سارّة" في الجهة الموازية له ، ويفصل بينها ممرٌ صغير.

تكتب المُعلمة الدرس بالطبشور على السبّورة ، ثم تلتفت لتشرح ، فيما يغوص "تيّم" في تفكير عميق ، كيف سيرسل تلك الورقة التي قصّها من كتاب قديم في مكتبة أبيه إلى "سارة" ، بعد أن قصّ تلك الصفحة من الكتاب ثم وضع خطًا تحت سطر :" أحبّكِ حبًا يُقربني إلى الله ، فأشكر الله على نعمائه ، وأحبّك حبًا

يقربني إلى الشيطان ، فأستعيذ بالله منه ، هكذا أنا بين هِداية وضلالة ، ضلالةٌ غير أنّ الضلال في الحب فضيلة " !
الصفحة كانت رسالة من كاتبٍ لمحبوبته التي أحبّها أو ربّما تخيّلها ، اعتقد "تيّم" أنه إذا أهدى "سارّة" تلك الصفحة لونها الأصفر التليد سيكون أفضل لو كتب تلك الكلمات بيده.

لكن كيف السبيل لإهدائها وهو لم يُحدّثها من قبل ، وكيف سيستجمع تلك الجرأة ، هكذا احتار.

فكّر أن يُسلمها لها يدًا بيد ، لكن عدِل عن الفكرة بسرعة لأنها تتطلب جرأة عالية ، ولا يضمن ردة فعلها ، وبين مد الحيرة ، وجزر القرار اهتدى إلى أن يطوي تلك الورقة ، ويُلقيها أسفل قدميها ، على غفلة من المُعلمة.

تتزايد ضربات قلبه ، يتخيل جميع السيناريوهات ، المُعلمة مُستغرقة في كتابة الدرس على السبّورة ، يطويّ "تيّم" الورقة ، يستجمع قواه وتركيزه ، وأثناء إلقائه للورقة التفتت المُعلمة على حين غرّة ، فرأته ، الورقة تحت ساق "سارّة" ، التي لم تُحرك ساكنًا ، فيما صُعق "تيّم" من اكتشاف فعلته ، فارتفعت حرارة جسده ، تهبط المعلمة بجسمها المُترهّل لتلتقط الورقة ، فتعود لوضعها بعد أن نهجت كثيرًا ، تقرأ السطر الموضوع تحته خطًا ، هزّت رأسها ، ليس لفهمها المعنى بل للتوعّد ، بينما ينكمش "تيّم" في مقعده ، متمنيًا لو لم تشاهده المعلمة ، فيما تجلس سارة مضطربة بعد أن احمرّ خدّاها.

أصرّت المعلمة أن تذهب بـ"تيم" لمدير المدرسة ، لكنها عدلت عن رأيها ، بعد أن توسّل إليها ابن أخيها الذي هو صديقٌ مُقرّب لـ"تيم" ، فاكتفت بطرده من الفصل فقط ، ثم أخذت بالورقة بعد أن طوتها وألقتها من النافذة بقوة ، لتهبط على أرض الشارع تئن.

يمرُّ موكب وزير الدولة ، الصخب يملأ المكان ، الشارع على قدمٍ وساق ، يطل الوزير من نافذة سيارته الفارهة ، يجد تلك الورقة مُلقاة على الأرض ، يتذمر ، فيأمر كبير مسئولي النظافة برفد كنّاس هذه المنطقة ، رغم أنّ الشارع كان نظيفًا إلا من الورقة التي قُذف بها من نافذة الفصل منذ دقائق.

تتهادى الورقة مع نسيم الجو العليل لا تعرف مصيرها إلى أين ، حياة طويلة عاشتها تلك الورقة مذ سيرتها الأولى ، حين كانت جزءً من لُحاء شجرة بلّوط في ولاية "ألاباما" إحدى الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت تُظلل المارّة وتُسبح باسم الذي خلق ، ثم تقاذفتها الأيدي والآلات ، وسافرت إلى القاهرة على شكل ورق مُستورد ، مرورًا بعملية الطبع وضمّها في كتاب ، إلى أن صارت ما هي عليه الآن ، حياة صعلكة لا تناسب طبيعتها ، إلى أن أتى ذلك المُراهق واقتطعها من كتابٍ قديم كان راقدًا مطمئنًا على رف مكتبة أبيه ، تسببت في طرد عامل نظافة من عمله ، وكانت ستتسبب في طرده هو شخصيًا من المدرسة.

يحوّطها بذراعه ، يختلس منها قبلة أو قبلتين دون أن يلاحظهم المارّة ، يهمس في أذنها اليسرى بعض شعرٍ سرقه من شاعرٍ مجهول على صفحات "الفيس بوك" ، يُلامس شعرها المتطاير كشلالٍ هادرٍ ، تنظر لساعة يدها ، تخبره أن

الوقت تأخر ، يستعطفها لتبقى ، دون جدوي ، تسترضيه بقبلة على خدّه الأيمن ، وقبل أن ترحل تطلب منه أن يكتب لها رقم هاتفه ؛ لأن هاتفها سُرق منها وهي آتية له ، يلتقط تلك الورقة الصفراء بجانب قدمه ، يستعير قلمًا من محلٍ جواره ، ويكتب لها رقمه ، فتمضي مُسرعة لتلحق القطار الذاهب إلى الصعيد بعد أن أنهت فصلها الدراسي الأول من كليتها.

أثناء ركوبها القطار ، ومنه إلى المعديّة التي تقلها إلى بيتها ، استدعت طعم تلك القبلات الخاطفة ، التي أثارت في نفسها كل فوضى مُحببة.
ما إن وصلت بيتها حتى سلّمت على أهلها في الصالة ، ثم توجهت إلى غرفتها الصغيرة ، وضعت يدها في جيبها ؛ لتخرج الورقة التي بها رقم هاتف محبوبها لكن لم تجدها ، فتساءلت في عصبية أين ضاعت الورقة ، غير متقبلة أنها ستظل فترة الأجازة لا تُحدثه.

كعادته كل يومٍ ، يروح إلى غيطه باكرًا على حماره وبصحبة جاموستين وبقرة ، يدندن بلهجته الصعيدية بعض المواويل ، لتهون عليه طول الطريق إلى الغيط ، ما إن يصل حتى يقدم البرسيم لماشيته ، ويجلس هو وحبيبته معًا على حافة الجسر ، "جوزته" الحبيبة التي صادقها منذ ثلاثين عامًا ، يجمع بعض الورق ليُشعل االفحم ، يلتقط بعضها ومنها تلك الورقة الصفراء ، يُدندن :

لو جولتلك

والله بحبك

هـ تصدجيني ولا لع

لع لع لع

أوعي تجولي لع

دأنا جلبي دايب دوب

ومولع

من يوم ريتك

وأنا حبيتك

هملت أهلي وناسي

وجيتك

أطلب ودك

وأجطف وردك

جولي لخدك

أوعي يجول لع

لع لع لع

أوعي تجولي لع

دأنا جلبي دايب دوب

ومولع

كركرة الجوزة مع أواخر الكلمات أنتجت لحنًا ، وكأن الكركرة جزءٌ منه ، ما إن انتهى حتى قام ، وقال مُحفزًا نفسه: استعنا ع الشجا بالله.

****

ميتٌ حي

كأنّ على رؤوسهم الطير ، مشية وقِرة في صمت ، مثلما يأخذنا الموت في صمت ، يُشيّع جثمانه في صندوقٍ خشبى أخضر اللون ، مكفن بجسده بكفنٍ أبيض ناصع.

بكى من بكى ، وصرخ من صرخ ، وعند البكاء فالجميع متساوون ، رجلان يحفران بجدٍ بفأسٍ حاد ، ضرباتهم أجراسٌ مؤلمة ، وضعوا جثمانه في الحفرة ؛ علّها تسد جوع الأرض ، أما آن للأرض أنْ تشبع ؟!

بدأت الأدعية للميت بالرحمة والمغفرة والكل يؤمّن ، بكت السماء وأذرفت دمعًا غزيرًا ، انتهت الجنازة كما ينتهي كل شيء ، وهمّوا جميعاً بالانصراف ، ولكن شتانّ شتانّ بين انصراف المُحبين وانصراف القائمين بالواجب .

كل شيءٍ عادي ، مازالت الساعة تدق ، والهواء يُرسل ، والناس تمضى ، بل ومازالت الأهازيج تشدو ، أصرّت أسرة " المتوفى " أن تُقيم مأتماً كبيراً يليق بحجم المأساة ، اتفقوا مع المقريء وصاحب أعمال الضيافة والإضاءة ، وكذلك النُدُل وكل شيء.

بدأت التلاوة ، معارف وأقارب المتوفى يصطفّون في صفين متقابلين ، والمعزّون جاءوا من كل فجٍ عميق يسعون ، جاء رجلٌ فاخرٌ هندامه ، وجيهٌ منظره ، يبدو من الأعيان ، يُسرع أحد الواقفين لاستقباله حفاوةً به وتقديراً ، وددت لو وكزت من استقبله وكزةً تُؤلمه ، أو لكمة قوية على وجهه بقدر قوة وجريمة ما ارتكبه ، فعند الموت لايُمجّد أحد ، المجد اليوم للموت وحده !

لم أبكِ بل كنت أواسي وأربّت على كتف الأقارب والمعارف ، لم أبكِ وأنا من يحق له ذلك أكثر من أي شخصٍ آخر ، كعادتي أحب أن أنصت إلى المقرىء ولاسيما الحلو صوته منهم ، جلست قريباً منه وبآذان مُصغية شرعت أنصت وأتمايل كصوفيّ هزّه الوجد ، إلى أن توقف عن التلاوة لحظات ؛ ليتسنى للمعزّين أن يدخلوا السرادق ولآخرين أن يخرجوا منه ليستوعب المأتم كل هؤلاء ، وأثناء الزحام أوشك عجوزٌ أنْ يقع ، أسرعت إليه ، ومددت له يدى لأساعده ، لكنه لم يأبه ، ولم يتركني أساعده ، بل لم يشكرني ، تعجبت وقلت لعله لايريد أن يستسلم لسقوط الموت كما فعل المتوفى .

طلبت من النادل فنجانَ قهوة زيادة السكر للمرة السابعة لكنه لم يأتِ ، ربما اعتبر طلبي إهانة للموت ، وكان حريّاً بي أنْ أطلبها "سادة" لتلائم حجم الفقد.

في أحد زوايا السرادق يتنامى إلى سمعي شيءٌ من الثرثرة الخبيثة ، أناسٌ يتحدثون عن انتخابات مجلس الشعب الحالية ، وحظوظ كل مرشح في الفوز ، كاد أحدهم أنْ يضحك مقهقهاً لولا تذكر أنه في مأتم ، فسجن الضحكة في فمه المتعجرف ، وادّعى أنه يسعل وطلب من النادل كوب ماء.

أشعر بالحرارة رغم برودة الجو ، الوجع يدغدغني حد الشلل ، كاد رأسي أن ينفجر ، فككت أزرار قميصي العلوية ، أحتاج القهوة الآن كمريض السكري في حاجته للأنسولين ، أقسمت لو مرّ النادل من أمامي سوف أوبخه ، ولو لزم الأمر سأوسعه ضرباً ، فاض بي الكيل ، فعلاً جاء من أقصى المأتم مهرولًا ، وقف أمامي ، هممتُ أن أوبخه لكني اكتشفت أني بغير صوت ، تحسست حنجرتي فتذكرت أننى الميت فذهبت روحي مُهرولة مستعدة لحساب الملكيْن !

****

شكـــــــــر

الشكر للشاعر المبدع عبدالعزيز رياض على مراجعته الأمينة لهذه المجموعة ..
الشكر لمن دعّمني وسيدعمني ...
الشكر للقاريء الذي لولاه ما كنّا نحن...
توارثوا الكلمة ، فما أعظم من أنْ تأتي ذريةٌ تُردد جملة قلتها ، أو أن يُغازل طالب حبيبته في الجامعة عبر نصّي ، أو جملة يعتذر مخطئ بها لصديقته ، وربما كلمة تفتح باب الود بين قلبين أوشكا على الخراب !
الشكر لمن آمن بي والشكر أكثر لمن لا يؤمن بي.

عبدالفتاح دياب

" تمت بحمد الله "